محمد محمد المدني

سورة الأنعام

والأهداف الأولى للإسلام

١٣٧٦ هـ — ١٩٥٧ م

مطبعة أحمد مخيمر ٤٧١٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الأمين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الهداة الراشدين .

اللهم بك أستعين فأعنى ، ومنك أستمد الفتوح فأنلنى ، اللهم إنى أبرأ إليك من حولى وقوتى ، فسدِّدْ خطاى ، واشكر مسعاى ، وجنبنى هواى .

* * *

أما بعد : فإن « سورة الأنعام » أولُ سورة مكية فى ترتيب المصحف بعد السور الطوال الأربع المدنيات ، وقد نزلت جملة واحدة كما ورد فى أصح الروايات ، وكان نزولها بعد أن أُمِر رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يصدع بدعوة الحق ، ويعلنها للناسَ أجمعين ، وقد تأملتها فوجدتها تتضمن الأهداف الأولى للدعوة الإسلامية ، ورجحت أن هذا هو السر فى كونها أول ما نزل بعد إعلانها والصَّدْع بها ، وفى كونها جُعِلَتْ أولَ سورة مكية طويلة فى المصحف ، ثم كان لى فيها تأمُّلٌ ودَرْس ، نشرَتْ مجلة « رسالة الإسلام » بعضَ جوانبهما فى فصلين متتابعين ، ثم رأيت أن أكمل ما بقى من فصول هذا البحث ، وأخرجه كتاباً يرى فيه القراء فكرتى كاملة عن هذه السورة الكريمة .

فها هو ذا على بركة الله ، وأسأله تعالى ـ وقد هدانى إليه ، ويسَّره لى ـ أن ينفع به ، ويتقبله منى ، إنه هو السميع العليم ؟



القاهرة فى { ٢٧ من رمضان سنة ١٣٧٦ هـ
٢٧ من ابريل سنة ١٩٥٧ م

منهج البحث

متى نزلت سورة الأنعام — نزولها بمكة جملة واحدة — معنى قولهم : « نزلت الآية فى كذا » ووقوع كثير من الاضطراب فى إلحاق المدنى بالمكى وعكسه — أخطاء وقعت فيها لجنة الإشراف على طبع المصحف الفؤادى — تحقيق أن الآيات التسع التى استثنوها من سورة الأنعام مكية — لم سميت السورة بسورة الأنعام — الفترة التى نزلت فيها هذه السورة كانت فترة نضال فكرى عنيف بين الإسلام والشرك — سورة الأنعام مظهر كامل لهذا النضال —

متى نزلت سورة الأنعام :

﴿ سورة الأنعام ﴾ أول سورة مكية من السور الطوال فى ترتيب المصحف ، أما فى ترتيب النزول فقد قالوا : إنها السورة السادسة والخمسون ، وقد نزل قبلها مباشرة عدة سور تلتقى معها فى كثير من أغراضها وأسلوبها ، وأقربُ هذه السور إليها نزولا هى سورة : « الحِجر » .

وقد يدلنا ذلك على أن سورة الأنعام نزلت فى السنة الرابعة من البعثة ، إذ أن سورة الحجر التى نزلت قبلها مباشرة تشتمل على آية معروفة التاريخ هى قوله تعالى خطاباً لنبيه الكريم « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » . يقول ابن إسحق صاحب السيرة : « ثم إن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصْدع بما جاء منه ، وأن ينادى الناس بأمره ، وأن يدعو إليه ، وكان بين ما أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمْرَه واستسرّ به ، إلى أن أمره الله بإظهاره ثلاث سنين — فيما بلغنى — من مبعثه ، ثم قال له : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » اهـ كلام ابن إسحق — فإذا انضم إلى هذا ما هو معروف من أن الوحى كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الفترة متتابعاً ، أمكننا أن نرجح أنه لم يقع فاصل زمنى طويل بين نزول سورة « الحِجْر » ونزول سورة « الأنعام » ، وأنهما نزلتا فى السنة الرابعة .

وإنما اهتممنا ببيان ذلك واستخرجنا دليله ، لأنه يفيدنا فى معرفة الجو الذى نزلت فيه هذه السورة ، ومعرفة ذلك تفسر لنا عنايتها بما عنيت به من الأغراض .

نزولها بمكة جملة واحدة :

وقد اختُلف فى نزول هذه السورة : هل نزلت جملة واحدة أو نزلت مفرقة ؟ وهل كان نزولها كلها بمكة أو نزل بعض آياتها بالمدينة ؟ ثم الذين قالوا بنزول بعض آياتها بالمدينة قد اختلفوا فى تحديد هذه الآيات على أقوال شتى ، والصحيح من هذا كله أنها نزلت كلها بمكة جملة واحدة ، وعليه أكثر المحققين من المفسرين ، وقد أورد ابن كثير فى تفسيره الروايات التى تثبت ذلك وأعرض عما سواها ، وابن كثير حافظ نقادة من الذين يعرفون كيف يتخيرون .

معنى قولهم : (نزلت الآية فى كذا) ووقوع كثير من الاضطراب فى إلحاق المدنى بالمكى وعكسه :

والسبب فى وقوع هذا الاختلاف تعارض الروايات فى هذا الشأن ، واختلاف مناهج الترجيح ؛ وينبغى أن يعلم أن ما ذكر فى أسباب النزول ، وفى إلحاق آيات مكية بسورة مدنية ، أو آيات مدنية بسورة مكية ؛ قد داخله كثير مما يحدث الاشتباه ويوجب الدقة والحذر فى القبول ، وقد نبه إلى ذلك أهل هذا العلم ، انظر ما نقله السيوطى فى الإتقان عن ابن تيمية والزركشى وخلاصته : أن قولهم نزلت هذه الآية فى كذا . يراد به أحيانا سبب النزول ، وأحيانا أن حكم الآية يشمله وإن لم يكن هو السبب . فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع ، وقد تنازع العلماء فى قول الصحابى نزلت هذه الآية فى كذا : هل يُجرى مُجرى المسند كما لو ذكر السبب الذى أنزلت لأجله ، أو يُجرى مُجرى التفسير منه الذى ليس بمسند ، فالبخارى يدخله فى المسند ، وغيره لا يدخله فيه ، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح . اهـ

واقرأ ما نقله السيوطى أيضا عن ابن الحصار حيث يقول : « كل نوع من

المكى والمدنى منه آيات مستثناة ، إلا أن من الناس من اعتمد فى الاستثناء على الاجتهاد . وقد استُثنى من سورة الأنعام تسع آيات - ولا يصح به نقل خصوصاً قد ورد أنها نزلت جملة ، اه كلام ابن الحصار .

أخطاء وقعت فيها لجنة الإشراف على طبع المصحف الفؤادى :

وقد اقتحمت اللجنة التى أشرفت على طبع المصحف الفؤادى المتداول ميداناً ما كان لها أن تقتحمه ، ذلك أنها عنيت بأن تنبه بين يدى كل سورة من سور القرآن المدنية أو المكية بذكر ما استثنى من الآيات ، فنراها مثلا تقول : « سورة كذا مكية إلا آيات كذا وكذا فمدنية » ولا شك أن الحكم بذلك ليس قاطعاً ، وإنما هو حكم فى أمر خلافى ، ولا ينبغى ان يوضع مثله هذا الموضع فى المصحف بين يدى السور ، فإن كثيرا من الناس يظن أن ذلك أمر مُسلم ، وخبر متفق على صحته ، مع أن اللجنة قد تختار مرجوحا ، وقد لا تتنبه إلى ما فى بعض الروايات التى تعتمد عليها من مقال فى المتن أو فى السند ، ولكى يشاركنا القارىء فيما نحس به من خطأ هذه الخطة نورد أمثلة مما جاء بين يدى السور الكريمة من ترجيحات هذه اللجنة ، ونناقشه مناقشة يسيرة :

(١) فمن ذلك أنها كتبت عن سورة يونس أنها مكية إلا آيات استثنتها ، ومن هذه الآيات آية ٩٦ وهى قوله تعالى : « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون » فهذه الآية مدنية فى الرواية التى اعتمدت عليها اللجنة مع أن بَعدها مباشرة آية متصلة بمعناها اتصالا يقضى بأنها نزلت معها ، بعدها لا قبلها ، هى قوله تعالى : « ولو جاءتهم كلُّ آية حتى يروا العذاب الأليم » فظاهر أن قوله « ولو جاءتهم » مبالغة على قوله : « لا يؤمنون » فكيف نتصور أن كل واحد منهما نزل فى وقت ، ثم نتصور أن المبالغة نزلت قبل الأصل المبالغ عليه ؟

(٢) ومن ذلك أنها كتبت عن سورة مريم أنها مكية إلا آيتى ٥٨ ، ٧١ فمدنيتان ، وهاتان الآيتان هما :

أولا : قوله تعالى : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم

ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجّدا وبُكيا ».

هذه آية ٥٨ وهى تبدأ باسم الإشارة « أولئك » وقد سبق ذلك حديث السورة منذ أولها عن الأنبياء والصديقين ، فقد ذكرت زكريا ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى وإسماعيل وإدريس ، فمن الواضح أن الإشارة لهؤلاء ، فإذا قيل إن الله ذكرهم فى مكة ، ثم أشار إليهم بهذه الإشارة فى المدينة كان ذلك موضع نظر .

ثانياً : قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » هذه هى الآية ٧١ المستثناة ، أى أنها مدنية مع أن بعدها قوله تعالى : « ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » والمعنى يقتضى أن يكون ترتيب نزولها حسب ترتيب ورودهما فى المصحف ، لأن الآية الثانية مترتبة فى المعنى على الآية الأولى ، فالورود سابق على الإنجاء ، فكيف يعكس الأمر فيجعل المتأخر طبعاً متقدما وضعا ؟ .

(٣) وشبيه بهذا ما قالوه فى سورة يوسف ، فهى مكية كلها إلا الآيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٧ فمدنية .

ومعنى هذا أن الآيات ٤ ، ٥ ، ٦ مكية ، وهى قوله تعالى : « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا » إلى قوله : « كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق إن ربك عليم حكيم » وأن قوله بعد ذلك مباشرة : « لقد كان فى يوسف وإخوته ايات للسائلين » مدنى ، وقد جاء بعده مباشرة أيضاً آيات مكية أخرى هى : « إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة » إلى آخر السورة ، والضمير فى « قالوا » للأخوة ، فانظر أيها القارىء كيف يريدوننا على أن نفهم أن ضميرا فى آية مكية متقدمة نزولا يعود على مذكور فى آية مدنية متأخرة وكيف اقتطعوا جملة من قصة ففرقوا بينهما فى الوطن إلى هذا الحد ؟ .

تحقيق أن الآيات التسع التى استثنوها من سورة الأنعام مكية :

هـذه أمثلة من المصحف الشريف عامـة ، فلننظر فيما فعلوه فى سورة « الأنعام » خاصة :

إنهم أعرضوا عن جميع الروايات القوية القائلة إن هـذه السورة نزلت جملة واحدة ، وأخـذوا بكل رواية تستثنى أيَّة آية من الآيات ، فكتبوا بين يدى السورة فى المصحف هذا التنبيه : « سورة الأنعام مكية إلا الآيات : ٢٠ ، ٢٣ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٤ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ فمدنية » فهل هذا الحكم صحيح ؟ .

(١) أما الآية العشرون فهى قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » .

ويظهر أنهم لما وجدوا الحديث فى هذه الآية عن أهل الكتاب ، ووجدوا أن هـذه الآية نظـيرة لآية أخرى مدنية تبدأ بما بدأت به ، وهى قوله تعالى فى سورة البقرة : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » ١٤٦ ، ومن المعروف أن صلة الإسلام بأهل الكتاب إنما كانت بعد الهجرة ، وفى المدينة دون مكة ـ لما وجدوا هذا قرروا أن الآية مدنية ، فالمسألة ليست إلا اجتهاداً حُسب روايةً مسندة ، وهو اجتهاد غـير صحيح ، ويعرف ذلك مما رواه البغوى فى تفسيره عند قوله تعالى : « قل أى شىء أكبر شهادة » وهى الآية التاسعة عشرة أى الآية السابقة لآيتنا هذه قال : قال الكلبى : أتى أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أرنا من يشهد أنك رسـول الله فإنا لا نرى أحداً يصدقك ، ولقـد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس عندهم ذكر ، فأنزل الله تعالى قوله : « قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم » .

فهـذه الرواية تدل على أن أهل مكة كانوا يأتون أهل الكتاب ويسألونهم عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد ورد فى رواية أخرى ذكرت فى تفسير سورة الكهف أن قريشا بعثت النضر بن الحارث وعقبـة بن أبى معيط على رأس وفد

منهم إلى أحبار يهود يسألونهم عن محمد ويصفون لهم صفته ويستخبرونهم عنه الخ .
ومعنى كون الآية نزلت فى ذلك أنها نزلت متضمنة الرد على مازعموا من أن أهل الكتاب لايعرفون النبى ، وليس فى كتبهم ذكر له ، فالله تعالى قد أنزل هذه السورة جملة واحدة ، وفيها الرد على ماكان المشركون يزعمونه ، ومنه هذا الزعم المروى عن أهل الكتاب ، فإذا نظرنا إلى ذلك فهمنا أن الرد عليهم جاء فى الآيات الثلاث المبدوءة بقوله تعالى : « قل أى شىء أكبر شهادة » فالله تعالى يثبت صدق محمد صلى الله عليه وسلم بشهادته هو ، وهى أكبر شهادة ، وليس بالرسول ولا بهم حاجة مع شهادة الله إلى شهادة غيره ، ثم يكذب الدعوى المزعومة المنقولة عن أهل الكتاب من أنهم لايعرفون محمداً وليس له ذكر فى كتبهم ، فيقول : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » أى : فزعمهم الذى زعموا لكم باطل وكذب وافتراء ، ثم يقول : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لايفلح الظالمون » .

وبهذا يتبين أن الآيات الثلاث تكوّن وحدة متماسكة فى معنى معين مقصود فى وقت واحد ، وأن الذين زعموا نزول الآية الوسطى من هذه الآيات وحدها بالمدينة ، إنما اجتهدوا فأخطأوا .

(٢) وأما الآية الثالثة والعشرون ـ وهى الآية الثانية من الآيات التى قرروا أنها نزلت بالمدينة ـ فهى أيضا آية متوسطة بين آية قبلها وآية بعدها ، والآيات الثلاث فى معنى واحد ، ونحن نسوق هذه الآيات لنرى ماتفيده ثم نعقب برأينا : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤهم الذين كنتم تزعمون(٢٢) ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ماكنا مشركين (٢٣) انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ماكانوا يفترون (٢٤) » .

فالآية الأولى تتضمن سؤالا يوجه إليهم يومئذ تبكيتاً لهم ، والآية الثانية تصور حيرتهم حين يلقى عليهم هذا السؤال ، واضطرارهم إلى الخروج من مأزقهم بإنكار ماكانوا عليه فى الدنيا من الشرك ، والآية الثالثة تعقب على هذا فتلفت

النظر إلى كذبهم على أنفسهم ، وضلال شركائهم عنهم ، أى عدم وجودهم يومئذ لينقذوهم ، فهذا معنىً واحدٌ متماسك لاينبغى أن يمزّق فيجعلَ بعضه فى مكة وبعضه فى المدينة ، فما الذى حملهم على ذلك ؟ إنه اجتهاد خاطىء أيضا ، يفسره لنا قول قاله ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية ، فقد نقل عن الضحاك عن ابن عباس أنه يقول فى آية « ثم لم تكن فتنتهم » : هذه فى المنافقين ، ثم عقب ابن كثير على هذه الرواية بقوله « وفيه نظر ، فإن هذه الآية مكية ـ أى بناء على ترجيح أن السورة كلها مكية ـ والمنافقون إنما كانوا بالمدينة ، والتى نزلت فى المنافقين آية المجادلة : « يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ، ألا إنهم هم الكاذبون » وهكذا قال فى حق هؤلاء «انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » كقوله ـ أى عن المشركين فى سورة غافر ـ « ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله : قالوا ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعو من قبل شيئا ، كذلك يضل الله الكافرين » .

فكأنى بابن كثير يقول لمن زعموا أن الآية مدنية : لقد أخطأتم فهى مكية وجاءكم الخطأ من أنكم ظننتم أن الحلف فى آية الأنعام : « والله ربنا ما كنا مشركين » ، هو الحلف المذكور فى آية المجادلة : « فيحلفون له كما يحلفون لكم » فإن المجادلة سورة مدنية ، وآيتها فى المنافقين ، فهذا هو الذى أفضى بكم إلى الخطأ ، والحقيقة أن آية الأنعام مكية ، وأنها فى المشركين الذين كانوا فى مكة ، وليست فى المنافقين الذين كانوا بالمدينة ، فإذا أردتم أن تعرفوا أن هذا المعنى جاء فى غير هذا الموضع من المكى ، فاقرءوا سورة غافر المكية ، فإن فيها هذا المعنى ، وذلك قوله تعالى : « قالوا ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعو من قبل شيئا » .

بذلك يتبين أن الرواية التى اعتمدوا عليها ـ إن صحت ـ لاينبغى أن تُجْرى مُجرى الإسناد ، فإنما هى اجتهاد ظهر خطؤه ، والله أعلم .

(٣) وأما الآية الحادية والتسعون من سورة الأنعام فهى مكية أيضا كسائر آيات السورة ، وإنما وقع الاشتباه من أن فيها خطاباً حسبوه لليهود ، فالآية

هى قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » ، والاشتباه جاء من قراءة : « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » بتاء الخطاب ، قالوا فالذين كانوا يجعلون الكتاب الذى جاء به موسى قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً هم اليهود ، وهم المخاطبون ، فلا بد أن تكون الآية نزلت بالمدينة ، لأنه لايخاطب فى مكة من كان بالمدينة .

وهذه الشبهة وإن بدت قوية يعارضها أمور :

أحدها : أن اليهود لم يكونوا ينكرون إنزال الله وحيه على البشر ، وكيف ينكرون ذلك وهم أتباع نبى جاء بالوحى وبين أيديهم كتابه الذى أنزله الله عليه وهو التوراة ، وإنما الذين ينكرون أن لله رسلا من البشر هم كفار مكة ، وفى ذلك يقول ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية : قال ابن عباس ومجاهد وعبد الله ابن كثير : نزلت فى قريش ، واختاره ابن جرير ، وقيل نزلت فى طائفة من اليهود ، وقيل فى فنحاص — رجل منهم — وقيل فى مالك بن الصيف ، « قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء » ، والأول أصح ، لأن الآية مكية ، واليهود لاينكرون إنزال الكتب من السماء ، وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون إرساله محمدا صلى الله عليه وسلم لأنه من البشر كما قال « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس » ، وكقوله تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ، وقال هنا « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ، قال الله تعالى : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس » أى قل يامحمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شىء من الكتب من عند الله فى جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة : « من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى » وهو التوراة التى قد علمتم وعلم كل أحد أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران ؟ . أ هـ كلام ابن كثير .

ثانيها : أن الآية تقول بعد ذلك : « وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » وذلك فى المشركين أظهر ، لأنهم لم يكونوا على علم كأهل الكتاب ، ويؤيده ماجاء عنهم فى مثل قوله تعالى : « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » . « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » وإذا ترجح بهذا أن الخطاب فى هذه الجملة للمشركين كان من البعيد أن يكون ما قبلها فى الآية نفسها خطابا لقوم آخرين .

ثالثها : أن الآية التى جاءت بعد هذه تشير إلى القرآن الذى أنزله الله على محمد لينذر به أم القرى ومن حولها : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها » فهى تضم القرآن إلى التوراة فى رد ما ألفوا أن يقاوموا به دعوة الحق من إنكار الوحى إلى البشر ، فكأنه يقول لهم : إن الله تعالى ينزل الوحى على رسله ، وذلك هو كتاب موسى الذى سمعتم به ، وهذا هو القرآن الذى ينزل فيكم مصدقا لما بين يديه ، ومباركا ، وعاما للناس أجمعين .

رابعها : أن السياق قبل هذه الآية التى ظنوها مدنية قد عنى باستعراض الأنبياء الكرام بعد قصة محاجة إبراهيم لقومه ، فى آيات متوالية من قوله تعالى : « ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا » إلى قوله جل شأنه : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ، قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين » .

فهذا السياق يرشد إلى أن الغرض هو الرد على ما يزعمه المشركون فى مقاومتهم للرسول من أن الله تعالى لا ينزل على البشر كتباً ، فلذلك عد الله تعالى فى هذه الآيات أكثر الأنبياء ، وأنبأ أنه هو الذى هداهم وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة ، وأمرهم ثابت وإنزال الوحى عليهم ثابت ، فإن يكفر بهذه الحقيقة هؤلاء المعاندون الذين يقولون ما أنزل الله على بشر من شىء ، فقد وكل الله بها قوما ليسوا بها بكافرين ، فهى حقيقة متقررة آمن هؤلاء بها أم لم يؤمنوا ، وليس فى إرسال الرسل من البشر ، وإنزال الكتب عليهم ما يتنافى مع شىء من صفات الألوهية

حتى يعجبوا منه أو ينكروه ، وإنما هو على العكس من ذلك مما تقضى به حكمة الإله ورحمته وسنته فى دعوة البشر إلى ما ينفعهم ، فالذين ينكرون ذلك لا يقدرون الله حق قدره ، ولا يعرفون ما هو من مقتضيات حكمته ورحمته وسنته فى الهداية .

هذه هى الوجوه التى يترجح بها أن الآية مكية كسائر آيات السورة ، وهى التى تعارض شبهتهم فى أن الأفعال : « تجعلونه » و « تبدونها » و « تخفون » دالة على أن الخطاب لليهود ، ولم يكن اليهود إلا بالمدينة .

ولكن معارضة هذه الشبهة بما ذكرنا لا يعفى الباحث فى هذا الشأن من تخريج الأمر فيها ، وقد حاول بعض المفسرين ذلك على أساس أن الآية نزلت مرتين إحداهما بمكة ، والأخرى بالمدينة ، وأن اليهود بالمدينة قالوا كما قال المشركون بمكة : « ما أنزل الله على بشر من شىء » قالوا ذلك عناداً ولجاجاً ، كما فى بعض الروايات ، ويعرف ذلك فى نظرهم من أن فى الآية قراءتين : « يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً » بالياء التحتية ، وهذه هى القراءة التى نزلت بمكة ، فهى تحدث المشركين بأن اليهود يجعلون الكتاب الذى جاء به موسى قراطيس الخ ، والقراءة الأخرى بتاء الخطاب فى الأفعال كلها ، وهذه القراءة هى التى نزلت بالمدينة فى مواجهة اليهود خطاباً لهم .

وممن بنى على هذا صاحب المنار فى تفسيره ، ولست أوافقه ، فإن القول بنزول شىء مرة بمكة ومرة بالمدينة ليس بذاك ، ولا يطمئن إليه الباحث . والروايات التى تأتى بمثل ذلك محتملة للخطأ ، فقد يقع حادث بالمدينة تنطبق عليه آية مكية فيتلو الرسول هذه الآية عند الحادث ، فيظن أنها نزلت مرة أخرى بالمدينة ، وإنما تليت تلاوة ، وقد يكون المروى عنه لم يسمع الآية من قبل فيظنها نزلت حينئذ فيقول ذلك فيروى عنه ، على أنه لا تتبين الفائدة من نزول شىء واحد مرتين .

ولكنى أحل هذا الإشكال على نحو آخر ، ذلك أن قراءة الأفعال بالياء على الحديث عن الغائبين ظاهر فى أن الآية مكية ، وأنه تعالى يلزمهم بما يعرفونه من نزول الكتاب على موسى - وكان العرب يعرفون ذلك ويسمعون به - ثم يلزمهم

بما ينزل فيهم من القرآن فى قوله : « وهذا كتاب أنزلناه . . . . » الآية ، فهذه القراءة ظاهرة ولا تحتاج إلى تخريج ، أما قراءة الأفعال بالخطاب « تجعلونه » و « تخفونها » و « تبدون » وهى القراءة التى نقرأ بها عن حفص ، فالخطاب فيها كما أرى ـ والله أعلم ـ موجه إلى الناس على الجملة لا إلى مشركى مكة ، ولا إلى يهود المدينة ، فالله يقول : قل يامحمد لكل من حدثته نفسه بهذه الشبهة ، وهى الشبهة فى إنزال الوحى على البشر : « من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى » ـ وذلك أن هذه الشبهة عالمية إنسانية ، أى أن الإنسان يتحير فى أمر نزول الوحى على بشر لأنه يعرف فى نفسه الضعف والبعد عن الاتصال بالله والملأ الأعلى على هذا النحو الذى يطلب منه الإيمان به ، ولكنه مع ذلك مفطور على الإيمان بقوى غيبية يراها تسير هذا الكون وتسخره ، وتقدر له وتدبره ، فيقول فى نفسه لعل الوحى مما تفعله هذه القوى الغيبيه ، ولذلك نراهم يتوسطون فى نفيهم والتعبير عن شبهتهم فلا يقولون : لا ينزل الله وحيا ، ولكن يقولون : ما أنزل الله على بشر من شىء ، أو أبعث الله بشراً رسولا . إن هذا إلا رجل منكم يريد أن يتفضل عليكم ... الخ فهو إنكار لوقوع ذلك لالجوازه ، أو كما يقول ابن كثير : هو سلب عام، جوابه الإثبات الجزئى ـ ونعود إلى موضوعنا فنقول : إن الخطاب لكل من تعتريه هذه الشبهة من الناس ، وقوله تعالى : « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا » موجه إلى الناس على معنى أن فيهم من جعله كذلك وهم اليهود فالناس مسئولون عن ذلك فى الجملة لأنه صادر من بعضهم ، كأنه قال ألم ننزل عليكم أيها الناس كتاباً هو الذى جاء به موسى فجعلتموه ـ أى جعله بعضكم وجنسكم ـ قراطيس . . الخ .

وقد يُستظهر على هذا بأن بيئة الكلام وسياقه وَجوَّه فيها إشعار بأن الحديث ليس إلى قوم مخصوصين ، وإنما هو إلى الناس ، إلى العالمين ، إلى البشر ، فقبل الآية ذُكر الأنبياء واحداً بعد واحد ، وهم يمثلون قروناً متطاولة من عهود البشرية ، وقبل الآية أيضاً يقول الله تعالى : « إن هو إلا ذكرى للعالمين » وفى الآية : « الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس » وبعد الآية عن القرآن

« لتنذر أم القرى ومن حولها » كل ذلك يشعر بأن المعنى فى قراءة الخطاب على مخاطبة البشر الذين من شأنهم أن يَعجبوا من ذلك ويترددوا فى حصوله إذا لم يتدبروا ، وبذلك تكون الآية مكية ، ويحل إشكال القراءة المشهورة ، والله أعلم .

(٤) تأتى بعد ذلك الآية الثالثة والتسعون : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه بشىء » : ظنوا أن المقصود بالكلام مسيلمة الكذاب والأسود العنسى اللذان ادعيا النبوة فى السنة العاشرة والرسول صلى الله عليه وسلم فى مرضه ، والرواية ـ إن صحت ـ من قبيل تقرير أن حكم الآية يشمل هذا الادعاء ، لا أنها نازلة فى ذلك خاصة ، على أنهم صرحوا بعدم صحة هذه الرواية ، وطعنوا فى كل ما ورد متعلقا ببيان سبب نزول هذه الآية .

(٥) أما الآية الرابعة عشر بعد المائة من هذه السورة فسبب اشتباههم فيها وحكمهم بأنها مدنية هو ما جاء فيها من قوله تعالى : والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين » فلما رأوا أن الحديث عن أهل الكتاب وهم فى المدينة قالوا الآية مدنية ، وقد علمت أن هذا اجتهاد لا نقل ، لأنه لا مانع من الحديث عن أهل الكتاب فى مكة فقد كانوا يتصلون بهم ويسألونهم عن النبى ويصفونه لهم ويستخبرون خبره منهم ، والرواية ضعيفة مع ذلك .

(٦) والآية الحادية والأربعون بعد المائة نزلت فى سياق تحريم المشركين ما لم يحرمه الله من الأنعام والحرث ، وقد ظنوا أنها مدنية بقوله تعالى فيها « كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » قالوا إن الزكاة لم تفرض إلا فى السنة الثانية من الهجرة بالمدينة وهذه الآية تشير إلى حق الحرث ، وهو الزكاة المفروضة وبذلك يقول بعض أهل العلم وأصحاب الرواية ـ والحق أن الآية فى الصدقة المطلقة غير المحدودة ، وقد كانوا يعطون عند الحصاد من ثمارهم ، كلّ وما يجود به ، فهذا هو حق الزرع الذى كان معهوداً عندهم ، ثم جاء تشريع الزكاة فحدد المقادير نصاباً وزكاة وكان ذلك فى المدينة ، والحاصل أن الزكاة كانت أولا صدقة مطلقة

وأقرت بمكة ثم بينت مقاديرها بالمدينة ، ومع هذا لم تصح الرواية القائلة باستثناء هذه الآية من السورة التى نزلت كلها بمكة جملة واحدة .

(٧) لم يبق بعد ذلك إلا الآيات الثلاث ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ من السورة : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم . . . » الآيات ، وقد صحح بعضهم رواية عن ابن عباس باستثنائها وتقرير أنها مدنية ، وقد نقد الشيخ رشيد رضا هذه الرواية « بأن ابن عباس لم يكن بمكة ممن يحفظ القرآن ويروى الحديث فإنه ولد قبل الهجرة بثلاث أو خمس سنين ، وإنما روى ذلك عن غيره ، فيحتمل أن يكون الاستثناء من رأيه أو رأى من روى عنه أو ان يكون مرويا بالمعنى ، ويكون بعض الرواة هو الذى عبر بالاستثناء » .

وهكذا يتبين أن ما أخذت به لجنة الإشراف على طبع المصحف الفؤادى من أن بعض آيات هذه السورة نزل بالمدينة غير مقبول ، لا من جهة الرواية ، ولا من جهة المعنى وارتباط الآيات كما بينا ، والله أعلم .

لم سميت السورة بسورة الأنعام :

وقد سميتْ هذه السورة بسورة « الأنعام » — والأنعام ذوات الخفّ والظلف ، وهى الإبل والبقر والغنم ، بجميع أنواعها — لأنها هى السورة التى عرضت لذكر الأنعام على تفصيل لم يرد فى غيرها من السور ، بيان ذلك أن ذكر « الأنعام » و « النعم » ورد فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم عرَضاً ، مثل قوله تعالى « زيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث » ، « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » ، « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام » ، « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » ، « ولآمرنهم فليبَتِّكن آذان الأنعام » ، « فجزاء مثل ما قتل من النَّعَم يحكم به ذوا عدل منكم » إلى غير ذلك

وجاء فى سور أخرى من القرآن ذكر بعض أحكام الأنعام ، فى سورة المائدة : « أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا مايتلى عليكم » وفى سورة الحج « وأحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم » ولكن هذا الحكم هو بيان حلها وما استثنى من هذا الحل فليس فيه تفصيل لشئون كثيرة تتصل بالأنعام .

نعم جاء فى سورة المائدة أيضاً حديث عن الأنعام يشبه بعض ما ورد فى هذه السورة ، وذلك هو قوله تعالى : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » وفى ذلك شىء من التفصيل لأنواع من الأنعام تعلق بها افتراء المشركين ، وتحريمهم الباطل لما لم يحرم الله ، ولكنه على هذا إنما يتناول جانباً واحداً من جوانب كثيرة .

أما سورة الأنعام فقد جاءت بحديث طويل عن الأنعام استغرق خمس عشرة آية منها من أول الآية ١٣٦ إلى آخر الآية ١٥٠ .

وقد تناول الحديث عن الأنعام فى هذه الآيات من السورة جوانب متعددة تتصل بعقائد المشركين فيها :

تناول ما كانوا يعملونه من تقسيم الحرث والأنعام قسمين ، وجعلهم قسما لله يتقربون به إليه فيقرون به الضيفان ، ويكرمون به الصبيان ، ويتصدقون به على المساكين ، وقسما لشركائهم يذبحونه على أنصابها نسكا ، ويمنحونه لسدنتها وينفقون منه على دورها وأماكنها ، وقد كانوا بعد هذه القسمة المنكرة التى تعدل بالله سبحانه أوثاناً لا تنفع ولا تضر — كانوا يجورون على القسم الذى جعلوه لله فيحولونه أحياناً أو يحولون قسما منه إلى الأغراض العائدة على الشركاء ، ولا يجورون على القسم الذى جعلوه للشركاء بإيصال شىء منه للفقراء أو الضيفان . وذلك هو قوله تعالى « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله – بزعمهم – وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء مايحكمون » .

وتناول الحديث فى هذه السورة تقسيما آخر من تقسيماتهم المخترعة المبنية

على شركهم ، حيث جعلوا الأنعام ثلاثة أنواع نوعا حرموه واحتجروه وخصصوه بآلهتهم ، وكانوا لا يطعمون منه إلا الرجال ، ويقولون إن شئنا أطعمنا منه النساء وإن شئنا لم نطعم ـ وهذا النوع فى كلٍّ من الأنعام والحرث ـ ونوعا آخر هو تلك الأنعام التى حرموا ظهورها فلا تركب ، وهو البحيرة والسائبة والحامى ، المذكورة فى آية المائدة : « ماجعل الله من بحيرة . . . » والنوع الثالث أنعام لايذكرون اسم الله عليها فى الذبح ، بل يُهلون بها لآلهتهم وحدها ، وذلك هو قوله تعالى : « وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لايطعمها إلا من نشاء ـ بزعمهم ـ وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لايذكرون اسم الله عليها ، افتراء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون » .

وتناول حديث الأنعام كذلك حكما ثالثاً من أحكامهم الجائرة ، فقد كانوا يجعلون ألبان بعض الأنعام وبعض أجنّتها حقاً خالصاً لذكورهم لايصيب منه الإناث شيئا ، فكان الجنين إذا ولد ذكراً حيا جعلوه للذكور ، وإذا نزل ميتا جعلوه للذكور والإناث جميعا ، وإذا جاء أنثى احتفظوا بها للنتاج ، وذلك قوله تعالى : « وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم » .

وتناول الحديث فى السورة غير ذلك من شئون الأنعام ، محاجةَ المشركين فيما زعموه من تحريم بعضها مما سنعرض له فى موضعه إن شاء الله . فلا نطيل الكلام فيه الآن .

فهذا هو الحديث المفصل لشئون الأنعام الذى جاءت به هذه السورة فى معرض الزراية على الشرك والمشركين ، والإبانة عما يخالط عقائدهم من الخلل والفساد .

وبذلك سميت : ﴿سورة الأنعام﴾ .

الفترة التى نزلت فيها هذه السورة كانت فترة

نضال فكرى عنيف بين الإسلام والشرك :

علمنا أن هذه السورة نزلت بمكة فى السنة الرابعة من البعثة ، وأن ذلك كان

عقب أمر النبى صلى الله عليه وسلم بأن يصدع بالدعوة ، ويعلنها للناس بعد أن أسرّ بها ثلاث سنين ، وأنه قد نزل قبيل نزول هذه السورة سورٌ أخرى تتلاقى معها فى كثير من أغراضها وأساليب عرضها ، وأقربها إليها سورة الحجر التى نزلت قبلها مباشرة .

وهذه الفترة من فترات الدعوة الإسلامية كانت فترة عنيفة أشد العنف ، مملوءة بالمقاومة من الجانبين كأعظم ما تكون المقاومة ، فالمشركون مأخوذون بهذا النجاح الذى صارت إليه الدعوة حتى استطاعت أن تستعلن بعد الخفاء ، وأن تتحدى فى صوت عال ، ونداء جهير ، بعد أن كان المؤمنون بها يلجأون إلى الشعاب والأماكن البعيدة ليؤدوا صلاتهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم ماض فيما أمره به ربه من الصدع بدعوة الحق ، يتلو عليهم ما أنزله الله عليه من كتابه ، وفيه إنذار لهم ، وتفنيد لمعتقداتهم ، وتسفيه لآرائهم ، وإنكار لآلهتهم ، وتهكم بأوثانهم وتقاليدهم البالية ، فكان منهم من يستمع إلى القرآن متأثراً بقوته أو متذوقاً لبلاغته ، وكان منهم من ينأى عنه خوفا منه ، وهؤلاء وأولئك يتواصون مع ذلك بالنأى عنه . ويأخذ بعضهم على بعض العهود الوثيقة فى ذلك ثم لا يلبثون أن يتقابلوا عنده أو فى طريقه ذاهبين إليه ، أو منصرفين منه ، يتكرر ذلك المرة بعد المرة ، ويتلاوم عليه المتلاومون ، ثم يعودون .

يومئذ واجهت دعوة الحق أعداءها مسفرةً واضحة متحدية ، ووقف هؤلاء الأعداء مشدوهين مضطربين يشعرون فى أعماق نفوسهم بصدقها وكذبهم ، ويترقبون يوما قريبا لانتصارها وانهزامهم ، ولا يجدون لهم حيلة إلا المكابرة والمعارضة المستميتة بما درجوا عليه من العقائد الباطلة ، وبادعائهم كذب الرسول ، وبزعمهم أن إرسال الرسل من البشر أمر لم يقع من قبل ، وأن الله لو شاء إبلاغ عباده شيئا لأنزل إليهم ملائكة ، وإنكارهم البعث والدار الآخرة ، واستماتوا فى الدفاع عن عقائدهم وآلهتهم ، ونسوا أن محمداً عاش فيهم عمراً طويلا لم يقل فيه يوما قولة كاذبة ، ولم يخن فيه يوما أمانة اؤتمن عليها ، وأنهم لذلك كانوا

يلقبونه بالصادق الأمين ـ لم يذكروا شيئاً من ذلك ، ولم يفكروا فيه ، ولكنهم فكروا فقط فى أن الدعوة الجديدة التى استعلنت بعد استخفاء ، وتحدّت بعد ما ظنوه بها من الاستخذاء ، يجب أن تموت فى مهدها ، ويجب أن تكتم أنفاسها قبل أن تنبعث حرارة هذه الأنفاس إلى البلاد والقبائل والشعوب .

ورحبت الدعوة الإسلامية بهذا النضال ، وتحملت جميع مقتضياته وأثقاله ، وكان ذلك أول النصر لأن النور لا يظهر إلا بالاحتكاك ، والمبادىء لا تعرف أولا تشتهر أنباؤها إلا بالمعارضة ، ولأن الفرصة بذلك تسنح مراراً لأن يبدىء الداعى بها ويعيد ، ولو أن دعوة من الدعوات قوبلت من الناس بالقبول ، فلم يختلف فيها اثنان ، لما كانت انقلاباً ولا إصلاحا ولا ثورة على وضع ظالم ، أو حكم فاسد . ولما كانت إلا إقراراً للواقع على ما فيه ، ورضا بما هو حاصل ، فلا مبرر لقيامها ، ولا يمكن أن تحسب فى التاريخ بين الدعوات .

سورة الأنعام مظهر كامل لهذا النضال :

أخذت سور القرآن فى هذه المرحلة تتلاحق ، وأخذت آياتها تتعاون وتتآزر وكانت أغراضها متشابهة إلى حد بعيد ، وكان أولها وأحفلها بما نزلت له من أغراض بعد أمر الرسول بإعلان الدعوة والصدع بها ؛ هو سورة « الأنعام » فقد جمعت كل العقائد الصحيحة ، وعنيت بالاحتجاج لأصول الدين ، وتفنيد شبه الملحدين ، وإبطال العقائد الفاسدة ، وتركيز مبادىء الأخلاق الفاضلة .

ولو أن ناظرا فى هذه السورة أراد أن يستخلص من آياتها وعباراتها وأساليب حجَجِها ما يتّخذ أساساً لمعرفة الدعوة الإسلامية فى أصولها الاعتقادية ، المتعلقة بالألوهية والربوبية والرسالة والوحى والبعث والجزاء ، وما للمبطلين على ذلك كله من شبه ، وما يتبين به فساد شبههم من براهين وإشارات وتوجيهات ـ لو أن ناظراً فى هذه السورة أراد أن يتخذ منها ذلك ؛ لاستطاع ولوجد فيها ما يبتغى .

ولو أنه أراد أيضاً أن يجمع ما جاءت به ، أو أشارت إليه من مبادىء

الإصلاح الإسلامى للعالم ، ومن السنن الكونية ، والنواميس التى أرشد الله الناس إليها ؛ لجمع من هذا وذاك الكثير النافع .

ولهذا جاءت الروايات ببيان فضل هذه السورة، وأن الله تعالى أنزلها مشيّعة بالملأ العظيم من ملائكته ، وفى ذلك يقول الإمام الرازى فى تفسيره « مفاتيح الغيب » :

« إن هذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة ، أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة ، والثانى أنها شيعها سبعون ألفاً من الملائكة، والسبب فى ذلك أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين » .

ويقول القرطبى :

« قال العلماء : هذه السورة أصل فى محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور ، وهذا يقتضى إنزالها جملة واحدة لأنها فى معنى واحد من الحجة ، وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة وعليها بنى المتكلمون أصول الدين » .

وأقول : ولعل هذا هو السر فى أن هذه السورة جعلت أول سورة مكية فى المصحف من السور الكبار ، كما جعلت سورة « البقرة » أول سورة مدنية فى المصحف ، بل أول المصحف بإطلاق بعد فاتحة الكتاب ، لأنها أول سورة نزلت بالمدينة ، ولما جمعته من أصول الدين ، وأصول الشريعة ، وبيان أحوال أهل الكتاب والمشركين والمنافقين ، وبيان الخلق والتكوين ، وأهم الأحكام العملية .

٢

الأغراض الرئيسية لسورة الأنعام — وحدة الربوبية دليل على وحدة الألوهية — صلاحية هذا الدليل الفطرى لمشركى مكة ولغيرهم — جوانب أخرى عرضت لها السورة تركيزا لعقيدة التوحيد .

نعرض للأغراض الأساسية لهذه السورة على وجه من الإجمال مبينين صلتها بالبيئة المكانية والزمانية حين نزولها . ضامّين من أيات السور الأخرى ما يشابه آياتها ، ويعين على إدراك مهمتها ، ومعرفة ما ترمى إليه ، فنقول :

إن الأغراض الرئيسية التى استهدفتها هذه السورة الكريمة هى تركيز العقائد الأساسية الثلاث التى كان المشركون يومئذ ينازعون فيها ، ويبنون أفكارهم وأعمالهم وتصرفاتهم على ما ينافيها ، وهذه العقائد الأساسية هى :

أولا : توحيد الله ، ويتصل بهذه العقيدة إقامة الدليل على وحدة الألوهية بلفت النظر إلى آثار الربوبية ، وإلى صفات الإله الخالق المتصرف كما يتصل بها إبطال عقيدة الشرك ، وشبه المشركين ، وتقرير أن العبادة والتوجه والتحريم والتحليل إنما ترجع إلى الله .

ثانياً : الإيمان برسوله الذى أرسل ، وكتابه الذى أنزل ، وبيان وظيفة هذا الرسول ، ورد الشبه التى تثار حول الوحى والرسالة .

ثالثاً : الإيمان باليوم الآخر وما يكون فيه من جزاء .

وحدة الربوبية دليل على وحدة الألوهية :

بدأت السورة بتقرير الحقيقة الأولى فى كل دين ، وعلى لسان كل رسول ، تلك الحقيقة التى تؤمن بها الفطر السليمة ، ويدل عليها هذا العالم بأرضه وسمائه وما فيه من مخلوقات ناطقة وصامتة ، ظاهرة وخافية ، وما فيه من تحولات

وتقلبات ونور وظلمات ، وهذه الحقيقة هى أن الإله الذى له « الحمد » المطلق ، والتنزيه الذى لا يحد هو الله ، لأنه هو الذى « خلق » وهو الذى « جعل » ، فالخلق إنشاء وإبداع ، والجعل تصريف وتقليب ، والعالم أجمع فى دائرتيهما ، فلا ينفك شىء منه عن كلا هذين المظهرين : « خَلق » و « جَعل » ، ومقتضى ذلك أن المخلوق المجعول لا يمكن أن يتسامى إلى مرتبة الخالق الجاعل فيُعبد كما يعبد ، ويقصد كما يقصد ، فذلك هو مطلع السورة : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » وكل ما جاء فى هذه السورة إنما هو بيان أو تفصيل أو تمثيل أو تطبيق على هذه الحقيقة أحيانا بصفة مباشرة ، وأحيانا بوسائط تقرب أو تبعد .

وهذا المعنى هو الذى يعبر عنه بعض العلماء بأنه الحكم بتوحيد « الألوهية » استدلالا بوحدانية « الربوبية » ، وذلك فى القرآن كثير ، فأول فاتحة الكتاب : « الحمد لله رب العالمين » وأول الكهف : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب » وأول فاطر : « الحمد لله فاطر السموات والأرض وجاعل الملائكة رسلا » . وفى سورة الحجر : « إن ربك هو الخلاق العليم » . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين » .

ولو ذهبنا نتتبع هذا المعنى لأوغلنا فى التتبع ، ورأينا الكثير من الآيات ، فإن هذا هو أصل الأديان كلها ، وهو الحقيقة الأولى كما قلنا ، فحسبنا أن نعرض فيها بعض ما جاء فى سورة (الأنعام) : ــ

تلفت هذه السورة إلى مظاهر الربوبية ، وصفات الألوهية ، فتقول بعد مطلعها وفى ثناياها .

« هو الذى خلقكم من طين » . « وهو الله فى السموات وفى الأرض » . « فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى » . « فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا » . وجعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر » . « أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع » . « أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه

حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه » . « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه » إلى غير ذلك .

وتلفت إلى مظاهر الملك التام ، والسلطان القاهر فى الخلق والتصرف الكامل والعلم المحيط ، فتقول :

« قل لمن مافى السموات والأرض ؟ قل لله » . « وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم » . « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر » . « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار » . « وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة » .

وتدعو إلى الموازنة بين الله جل علاه ، وما يتخذونه من الشركاء ، فتقول :

« قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم » « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم من إله غير الله يأتيكم به » . « قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا » . « قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء ». إلى غير ذلك .

صلاحية هذا الدليل الفطرى لمشركى مكة ولغيرهم :

وهنا قد يرد سؤال : هل كان مثل هذا الدليل الذى يستدل به القرآن فى هذه السورة وفى غيرها على صحة هذه العقيدة الأساسية مناسبا لعقيدة المشركين ، منطقيا فى إقناعهم ؟ بل لعل قائلا يقول : إن الأمر لم يزد فى ذلك على إلقاء دعوى بوحدانية الرب والإله ففيم الحجة فى هذا على العرب ، وفيم الحجة على غيرهم ؟ فنقول :

أما الحجة فى هذا على العرب ، فلأنهم كانوا يؤمنون بأن لهذا الكون ربا خالقا منعما ، وأن هذا الرب هو الله ، وإنما كانوا مع ذلك يعبدون الأوثان ليقربوهم إلى الله زلفى ، ويقولون : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ولا يرون عبادة هذه الأوثان منافية لما يؤمنون به من ربوبية الله ، وفى القرآن الكريم آيات

كثيرة تدل على أن هذه هى عقيدتهم ، وعلى أن نوع انحرافهم عن عقيدة الحق إنما هو إشراكهم بهذا الإله الذى يعتقدونه دون غيره الرب الخالق المنعم .

ومن ذلك قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله » ، « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله » ، « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله » . « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله ، قل أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون ؟ » .

إلى غير ذلك من الآيات التى تجد الحجة فيها مسوقة إلى قوم لا ينازعون فى أن الله هو ربهم ورب كل شىء ؛ لإلزامهم بأن الرب الذى يعرفونه ، ليس هو الوثن الذى يعبدونه ، وإنما هو الله .

وقد جاء من هذا المعنى فى سورة الأنعام قوله تعالى : « قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ، بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون » . « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هـــذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » .

فهذا تحكيم لضمائرهم وما استكن فى قلوبهم وما عرفوه فى أنفسهم من رجوعهم إلى الله وحده حين الشدة ، ونسيانهم الشركاء .

وجاء فيها أيضاً قوله جل شأنه : « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون » .

وهذا تحكيم لهم فيما يعرفونه من أساس الخلق ، وكون الخالق هو الله وحده ، ولهذا كله تقول السورة بعد أن عددت كثيراً ملة مظاهر الربوبية « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل » .

وأما الحجة بهذا على غير العرب ممن لا يعتقدون بإله خالق ، وإنما يرون هذه الحياة وما فيها من باب المصادفات والتفاعلات ، أو ممن يعتقدون أن هناك إلهاً للخير وإلهاً للشر ، أو آلهة متعددين ، فإنها لا تأتى من إيمانهم بمثل ما آمن به العرب من ربوبية الله لكل شيء ، ولكنها تأتى من لفت الأنظار إلى مافى الكون من صنعة محكمة ، ونظام بديع مطرد شامل لكل شيء ، وأن العقول ليس من شأنها أن تتقبل الزعم بأن هذا الاطراد فى السنن والنظم ملايين السنين كله إنما كان عن مصادفات وتفاعلات ، أو أنه من صنع آلهة متعددة ، مع أن التعدد سبب للاضطراب والفساد ، لا للإتقان والتناسب والاطراد .

إن النظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء لا بد أن يثمر الإيمان بالله ، ولذلك نجد العلماء المبرزين فى أية ناحية من النواحى الكونية مؤمنين بالله ، لأنهم رأوا أكثر من غيرهم عجائب صنعه ، واطراد نظامه ، والإنسان مفطور على الإحساس بالقوة الغيبية ، يرى آثارها فى نفسه وفى كل شيء حوله ، فإذا جاء من يلفت نظره إلى الكون وما فيه من الأسرار ، بل من يلفته إلى نفسه : كيف خلق ، وكيف يفكر ، وكيف يعيش ، وكيف يموت ، فإنه لا بد متجاوب بروحه وقلبه مع هذا الذى يلفته ويوجهه ، مؤمن بهــذه القوة الغيبية التى فطر على الإحساس بها ، وهى الإله القادر العليم الحكيم .

وبهذا تكون الحجة عامة لكل ذى عقل سليم ، وفطرة صافية ، وإخلاص فى تطلب الحقيقة من دلائلها المبثوثة فى آفاق السموات والأرض ، ولذلك يقول الله جل شأنه : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » .

جوانب أخرى عرضت لها السورة تركيزاً لعقيدة التوحيد :

وقد أيدت السورة هذا الجانب ، وهو جانب النظر فى ملكوت السموات والأرض ، المفضى إلى الإيمان بالإله الحق ، بقصة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، حين تدرج بقومه إلى إبطال رأيهم وميراثهم الذى ورثوه عن آبائهم فى تأليه غير الله ، وفى ذلك جاءت الآيات الكريمة من قوله تعالى : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة » إلى قوله جل شأنه : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه » .

وسنعرض لهذا الجانب بالتفصيل فى غير هذا الموضع إن شاء الله .

ويتصل بهذا الجانب - جانب التوحيد - ما جاءت به السورة فى ناحيتين .

الناحية الأولى : إبطال ما زعموا من تحريم ما لم يحرم الله ، وإحلال ما لم يحل ، وذلك فيما ذكرنا طرفا منه حين تحدثنا عن وجه تسمية السورة باسمها ، والطرف الآخر هو استحلالهم قتل أولادهم ، وقد ذكرته السورة فى أثناء ما حكته عن شركهم وجعلهم لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، ولشركائهم نصيباً ، وذلك قوله تعالى : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون » وقد جمع الله تعالى بين تحريمهم بعض ما رزقهم من الأنعام والحرث وقتلهم أولادهم فيما تلوناه ، ثم فى إبطاله وتقرير خسارتهم به ، إذ يقول : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

الناحية الثانية : تقرير الوصايا العشر التى هى أمهات الأخلاق الفاضلة ، باسم الربوبية ، وذلك ما ذكر فى الآيات المبدوءة بقوله تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » .

فإن هذه الوصايا جاءت فى مقابل تحريمهم وتحليلهم لأنفسهم ، أو اتباعهم لشياطينهم أو لوحى شركائهم وأوليائهم فيما التزموا به من التحريم

والتحليل ، فكأن السورة تقول لهم : ليس التحريم والتحليل إليكم ولا إلى أحد ، إنما هو لله وحده ، فاستمعوا إليه يذكر لكم ما حرم عليكم ، ويؤيد ذلك أن هذه الوصايا جاءت مباشرة بعد قوله تعالى : « قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا » - والإشارة إلى ما حرموه وبينت الآيات فساد حكمهم فيه : « فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون » .

وقد كانت خاتمة هذه الوصايا العشر الجامعة هى قوله تعالى « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » وهى جامعة لكل ما يتصل باستهداف التوحيد فى العقائد والأعمال ، وتجنب التعدد والتفرق بالسبل المختلفة ، فإن الصراط الواحد هو الصراط المستقيم ، والصُّرُط الأخرى ضالة مضلة لا يحبها الله ، ولا يقرها ، ولذلك تقرر السورة بعد ذلك فى صراحة وقوة أنها ليست مما يتفق والإسلام ، وأن رسول الإسلام برىء من كل تفرق فى الدين أساسه الحزبية والتعصب ، فتقول :

إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » .

وسيأتى تفصيل لذلك بعد هذا الإجمال إن شاء الله تعالى .

٣

الوحى والرسالة ـ سر إنكارهما ودليل ثبوتهما ـ مواضع هذا الدليل فى القرآن الكريم ـ المناقشة فى الوحى فرع الإيمان بالله ـ شبهتان قديمتان للمنكرين : الاستبعاد ـ الاكتفاء بالعقل ـ الشبهة الأولى بلسان المنكرين المعاصرين ـ الرد عليها ـ الشبهة الثانية بلسان المنكرين المعاصرين ـ الرد عليها ـ القرآن يثبت نبوة محمد والأنبياء قبله ـ سر الاكتفاء بدليل إجمالى ـ أسلوب السورة مع المنكرين تلقينى إنذارى ـ سورة الأنعام وبيان الحقيقة فى شأن الرسول ـ مهمة الرسول تنحصر فى التبشير والإنذار ـ إنما يستجيب الذين يسمعون ـ إرشاد الرسول إلى المسلك القويم مع المخالفين والموافقين ـ تسلية الرسول .

الوحى والرسالة :

كما تحدثت سورة « الأنعام » عن الألوهية والربوبية ، ولفتت الناس إلى مظاهرهما فى الخلق والتصرف والتدبير المحكم ؛ تحدثت عن حقيقة ثانية تنبنى على الإيمان بهذه الحقيقة الأولى : ذلك أن من شأن الإله الرب أن يهدى عباده ويرشدهم إلى ما تصلح عليه أمورهم ، وتقوم عليه سعادتهم فى دنياهم وأخراهم ، فإن ربوبيته ـ جل شأنه ـ ليست قاصرة على ما هيأ من أسباب الحياة المادية ، وإنما هى ربوبية ذات آثار معنوية روحية كذلك ، ولعل هذا هو المعنى المراد فى قوله تعالى : « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » فإعطاؤه الخلق كل شىء هو مظهر النعم المادية التى أنعم بها عليهم ، حيث سخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض ، وهدايته هى مظهر النعم الروحية التى تفضل بها عليهم حيث وهبهم العقل وأسباب العلم ، وأرسل إليهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، وسن لهم الشرائع .

عُنيتْ سورة « الأنعام » بهذه الحقيقة كما عُنيت بالحقيقة الأولى ، فتحدثت فى كثير من آياتها عن الوحى والرسالة من جوانب شتى ، بعضها يتصل بإثبات الوحى وبيان حكمته والرد على منكريه ، وبعضها يرجع إلى بيان ما هو من وظيفة الرسول وما ليس من وظيفته ، وبعضها يتصل بموقف الناس أمام الرسالات الإلهية ، وبعضها يتعلق بالآداب التى رسمها الله للرسول وما ينبغى أن يكون عليه سلوكه مع مخالفيه وموافقيه .

ومن الخير أن نعرض لهذه الجوانب التى عرضت لها هـذه السورة الكريمة ، متعرفين إلى أسلوبها الذى عالجتها به ، منتفعين بهديها فيه .

سر إنكارهما ودليل ثبوتهما :

فمن ذلك أنها لخصت قضية الوحى والرسالة فى صدر آية من آياتها ، هى الآية الحادية والتسعون ، يقول جل شأنه : « وما قَدَرُوا الله حقَّ قدْره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء » فهذه الجملة على وجازتها تشتمل على ما يأتى :

(١) تسجيل كفر الكافرين بهذا الشأن الإلهى الذى هو إنزال الوحى على البشر.

(٢) الإشارة إلى شبهتهم الأساسية التى يتوارثونها خلفا عن سلف فى إنكار هذه الحقيقة ، وهى استبعادُهم حصول ذلك، أو زعمُهم إغناء العقل عنه .

(٣) إجمال الدليل الذى يُردّ به عليهم ، وهو دليل صالح لكل عصر ، ولكل ثقافة ، لأنه دليل عقلى فطرى فيه ذكر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

مواضع هذا الدليل فى القرآن الكريم :

ولعل من المفيد أن نذكر فى هذا المقام أن هذه العبارة : « ما قدروا الله حق قدره » جاءت فى ثلاثة مواضع من الكتاب الكريم :

الموضع الأول : هذا الموضع من سورة الأنعام ، وقد أُتْبعتْ بقوله تعالى :

« قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس » وهو مقابلة لسلبهم العام حيث قالوا : « ما أنزل الله على بشر من شىء » بالإثبات الجزئى لرسالة مشهورة معروفة ، وفيه بيان لوجه الحكمة فى الإيحاء بهذه الرسالة ، حيث قصد بها أن تكون نوراً وهدى للناس ، ثم أُتْبع ذلك بالإشارة إلى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها » وهى إشارة إلى حاضر شاهد بين أيديهم ، مصدق لما سبقه ، مع بيان الغاية منه ، والحكمة فى إنزاله ، وهى إنذار أم القرى ومن حولها .

والموضع الثانى : هو قوله تعالى فى سورة الحج : « ماقدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز ، الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير » وفى هذا الموضع جاءت العبارة نفسها معقَّبة بإثبات قوة الله وعزته ، وأن اصطفاء الله الرسل من الملائكة ومن الناس شأن من شئونه .

والموضع الثالث : قوله تعالى فى سورة الزمر : « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ، ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لايظلمون » وفى هذا الموضع تفصيل لبعض مظاهر القوة والعزة التى أثبتت لله مجملة فى الموضع الثانى ، ثم ينتهى الكلام بذكر المجىء بالنبيين والشهداء والقضاء بين الناس بالحق .

وهكذا تتلاقى العبارة التى صُدِّر بها الكلام فى هذه المواضع الثلاثة : « وما قدروا الله حق قدره » مع ماجاء تالياً لها فى كل موضع ، ويكون هذا التلاقى على معنى واحد مشترك هو إثبات أن الله يوحى ، لأنه قادر قوى ، ولأنه حكيم عليم .

المناقشة فى الوحى فرع الإيمان بالله :

بعد إجمال القول فيما تفيده هذه الجملة ، نتبعه بشىء من التفصيل فنقول :

إن قضية الوحى والرسالة من القضايا العويصة التى شغلت الناس قديماً وحديثا ، لما لها من أهمية قصوى فى حياة البشر ، إذ يترتب عليها مبدأ الإيمان بالأديان ، فيعترف أهل الأرض بتوجيه السماء ، أو مبدأ « اللادينية » التى لانعترف بهذه الصلة ولا ترتبط بها وترى أن الإنسان سيد نفسه ، وسيد هذا الكون الذى يعيش على ظهره ، لايتلق فى شأن من شئونه وحياً إلا من عقله وتجاربه .

ومن الواضح أن هذه القضية تأتى فى الترتيب العقلى بعد الإيمان بالألوهية

فمن آمن بأن الوجود إلهاً مستحقا للعبادة متصفاً بصفات الكمال والتنزيه ، أمكن أن يناقَش فى الوحى والرسالة ، إذ الرسالة تقتضى وجود « المرسل » والوحى يقتضى وجود « الموحى » وإذا انتفى الإيمان بمصدر الوحى والرسالة ، فالكلام فيهما عبث لا طائل تحته .

وقد علمنا فى الفصل السابق أن الناس فى قضية الألوهية صنفان : صنف جاءه الضلال من أنه أشرك مع الله آلهة أخرى ، فهو معترف بالله ولكنه يرى نفسه أقل من أن يتصل به مباشرة ، فهو يعبد الشركاء ليقربوه إلى الله زلفى ، وصنف أبعد من هؤلاء فى الضلال ، وهم الذين ينكرون الإله ويزعمون أن هذا الكون وجد بدون موجد ، وأنه يسير بنفسه دون مدبّر ولا مصرف .

وعلمنا أن القرآن الكريم يثبت « الألوهية » بإثبات مظاهر « الربوبية » وأن هذا الإثبات يصلح للصنفين جميعاً ، فهو يصلح للذين يتخذون مع الله إلهاً آخر حيث يفيدهم أن الرب الذى « خلق » و « جعل » - أى أنشأ وصرف - واحد ، فيجب أن يكون هو وحده المستحق للعبادة والطاعة ، وهو يصلح أيضاً لمنكرى الربوبية إطلاقاً ، من حيث إنه يناشد فطرتهم الكامنة ، وعقولهم التى لا يمكن أن تتقبل محض المصادفة التى يزعمونها مع هذا الخلق الكامل ، والتدبير المحكم ، والشواهد الناطقات .

والصنف الثانى مع هذا قلة من الناس فى كل عصر ، لا يؤبه لهم ، ولا يمكن أن يناقَشوا أو يُساق لهم دليلٌ غير الدليل الكونى الذى يصرّون على إنكاره ، فلا حيلة فيهم غير تركهم وإهمالهم حتى تقرعهم القوارع التى تهذب نفوسهم وعقولهم فتوجههم إلى تدبر الآيات والبينات ، أو حتى تنقضى حياتهم فيعودوا إلى ربهم فيعترفوا بما كانوا يجحدون .

لهذا كله بنيت جميع العقائد الدينية وأدلة إثباتها على الأساس الأول والحقيقة الكبرى ، وهى وجود الله الخالق المتصرف المستحق للعبادة والطاعة ، ومن بين هذه العقائد ، أو هذه الحقائق ، حقيقة الوحى والرسالة ، فالبحث فيها مبنى

على الإيمان بالله وبماله من صفات الكمال والتنزيه .

وعلى هذا الأساس جادل الناس قديماً وحديثاً فى قضية الوحى والرسالة ، وجودلوا فيها .

شبهتان قديمتان للمنكرين : الاستبعاد :

والقرآن الكريم يبين لنا فى كثير من آياته أن هناك شبهتين قديمتين يقوم عليهما دائماً إنكار المنكرين :

إحداهما : أن ذلك مستبعد أو مستحيل ، إذ كيف يتصور العقل فى زعمهم أن يتصل الخالق بالمخلوقين فيوحى إليهم بأمره أو كلامه ؟ فالخالق له صفاته التى منها تنزهه عن المكان والصوت ، والمخلوقون لهم صفاتهم التى منها أنهم محدودون قاصرون لايستطيعون أن يتلقوا الكلام والأمر إلا من مثلهم ، وقد جوبهت الرسالات الإلهية بهذه الشبهة منذ العهود الأولى ، فنوح يقول لقومه : « أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون » . وهود يقول لقومه عاد هذه العبارة نفسها : « أوَعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم » ، والملأ الكافرون من قوم صالح يقولون للذين آمنوا به : « أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون » وهكذا كل رسالة . حتى ليقولُ القرآن الكريم فى الرسل عامة : « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون » . « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولا » ويقول فى شأن خاتم النبيين والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين : « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس » . « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم » . « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » . . . الخ .

وقد جاء هذا الإنكار المبنى على الاستبعاد فى سور الأنعام حيث تقول : « ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إنْ هذا

إلا سحرٌ مبين ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك . . . » « وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إنْ هذا إلا أساطير الأولين » « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » إلى غير ذلك من الآيات .

الاكتفاء بالعقل :

الشبهة الثانية : أن الله تعالى وهب الإنسانَ العقلَ ، فهو كاف لهدايته وإرشاده ، وليس بالناس معه من حاجة إلى وحى أو رسول ، هكذا يزعمون .

والقرآن الكريم يشير إلى هذه الشبهة من شبه المنكرين فيما يبينه من حكمة إرسال الرسل فى مثل قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » . « ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم » .

ومن ذلك فى سورة الأنعام قوله تعالى : « يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا » . « ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون ، وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ، أنْ تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين ، أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة » .

بعد هذا يسهل علينا أن نفهم أن قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره ، إذ قالوا ماأنزل الله على بشر من شىء » فيه بيان لإنكار المنكرين ، وذلك مصرَّح به فى قولهم : « ما أنزل الله على بشر من شىء » ، وفيه بيان لأن سبب هذا الإنكار

أنهم لم يقدروا الله حق قدره ، حيث كان منهم من استبعدوا هذا على قدرة الله ، مع أنه غير مستحيل بل ممكن ، وكان منهم من نازعوا فى أنه أمر تقتضيه الحكمة ، مع أنه هو عين الحكمة والمصلحة والرحمة ، وفيه إجمال للدليل الذى يرد به عليهم ، حيث يفهم منه أنهم لو قدروا الله حق قدره ـ أى عرفوه حق معرفته ، وأدركوا مدى قدرته وحكمته ـ لما نازعوا فى هذه القضية .

الشبهة الأولى بلسان المنكرين المعاصرين :

بعد هذا يحسن بنا أن نقف وقفة يسيرة مع المنكرين لهذه الحقيقة الإلهية من ملحدى عصرنا ، لنعرف فى أى واد يهيمون ، وكيف ننتفع بما أرشدنا الله إليه من هذا الدليل الفطرى فى الرد عليهم ، والتحذير من فتنهم وما يثيرون من شكوك .

إنهم يصورون الوحى تصويراً علمياً كما يزعمون ، فيقولون : إن النبى ماهو إلا إنسان مفكر له عقلية تخالف عادة عقلية أهل عصره ، وهو لايظهر إلا فى عصور الفساد والضعف والبغى والطغيان ، فيثور فى نفسه على هذه الأوضاع ، ويشتد مقته لها وتأمله فى طريقة التخلص منها ثم يُفضى به ذلك التأمل العميق ، والتفرغ الطويل ، إلى حالة يَعْتقد معها أن العناية الإلهية لا يمكن أن تدع أمور الناس تجرى هذا المجرى ، وأنه لابد للناس من منقذ ، ثم ينتقل إلى مرحلة أخرى هى مرحلة التطلع إلى أن يكون هو هذا المنقذ ، ثم إلى مرحلة الاعتقاد بأنه اختير فعلا لهذه الرسالة وتمتلىء نفسه بهذه العقيدة حتى يتصور أنه يسمع فيها وحيا ، وأن ملكا يغاديه بها ويراوحه ، وهو ليس بكاذب فيما يروى عن هذا الملك ، لأن خياله يجسّم له الأمر ولا يترك عنده ذرة من الشك فيه ، ثم يستغرق فى اعتقاد ذلك حتى يثبت فى نفسه ، ويوجه إرادته وجميع قواه إلى تحقيق ما اعتقد أنه رسالته التى بعث بها ، ويجد إلى جانبه من يؤمن به ويصدق كل مايرويه عن عالم الغيب ، ويخضع لأمره ونهيه ، ويزداد هؤلاء المؤمنون يوما بعد يوم ، وتقوم إلى جانبهم معارضة فتقويهم وتجعلهم يتكاتفون حوله مخلصين غير مترددين

ولا شاكين فى أنهم على الحق ، فهذا هو مايسميه الناس وحياً ورسالة ، وهذا هو تصوير العلم — يريدون علم النفس وماله من قواعد —

الرد عليها :

ومن الواضح أن هذا الذى يذكرونه ماهو إلا ظنون ومزاعم لا تستند إلى دليل عقلى تطمئن إليه القلوب ، ويرضاه المنصفون المحايدون ، وأن الذى حملهم على ذلك هو استبعاد إنزال وحى من الله على من يصطفى من عباده ، فهى نفس الشبهة التى كانت تراود سلفهم من أهل الشك والإنكار فى عهود الرسالات وبعدها ، غير أنهم فلسفوها والتمسوا الفروض لها والتعليل لأسبابها ودوافعها كأنها ظاهرة من الظواهر المادية التى تعودوا أن يطبقوا عليها هذا المنطق الخيالى الفرضى .

سبيلنا فى الرد على هؤلاء وبيان باطلهم أن نحجهم بما حج الله به المنكرين قبلهم فنقول لهم : على أى أساس بنيتم هذا الاستبعاد الذى أفضى بكم إلى التماس العلل والفروض ؟ وأىُّ بُعد فى أن يوحىَ الله إلى أحد من خلقه بوحى ؟ وهل كل ماغاب عنا إدراكه وعجزت حواسنا عن تفهمه تنكره عقولنا ؟ إننا نكتشف كل يوم أسراراً فى هذا الكون ما كنا من قبل نتصورها ، ثم تصبح على غرابتها أموراً معروفة مألوفة ، وإننا نرى الهبات الإلهية لاتقف عند الحد الذى تقبله إدراكاتنا المحدودة ، فكم رأينا من عباقرة أفذاذ لانظير لهم فى بيئاتهم ، ولا يجود التاريخ بمثلهم إلا فى الحين بعد الحين ، وكم رأينا من أفراد أوتوا قدرة عجيبة فى ناحية من النواحى لا نعرف أسبابها ، وأنا قد رأيت بنفسى غلاما من إحدى قرى « البحيرة » فى مصر كانت له موهبة حسابية عجيبة ، فهو يستطيع ـ مع أنه عامى جاهل ـ أن يستخرج حاصل ضرب عددين كل منهما مؤلف من عشرة أرقام فى وقت يسير ولا يخطىء فى ذلك ، ويقال له إن فلاناً ولد فى ساعة كذا من يوم كذا من عام كذا فما عمره بالدقائق فيجيب الإجابة الصحيحة فى نحو دقيقة بينما يعجز الحاسبون عن استخراج هذه الإجابة إلا بعد حساب طويل ، ولست

أريد أن أقول إن النبوة والرسالة شيء من ذلك أو يشبه ذلك ، ولكن أضرب هذا مثلا لما أودعه الله الإنسان من قوى ، وما يجود به على بعض عباده من مواهب لا يعرف سرها ، ولا يدرك كنهها ، فالله قادر وهاب ، ولا حد على قدرته ، ولا مانع لما أعطى ، فهل يعجزه سبحانه أن يهيء بشراً أو ملكا بقوة فوق العادة يستطيع معها أن يتلقى عنه أو عن ملك تلقى عنه ؟ إن الذى يقول باستحالة ذلك أو باستبعاده ينسى أن خلق الإنسان وتكوينه كله عجب ، ويكفى أن يفكر الإنسان فى أنه كيف يفكر ، ليعلم أن تفكيره من أعظم الآيات على قوة خالقه وقدرته وجوده الفياض ، ثم من ذا الذى كان يظن أن فى الذرة هذه القوة الكامنة ، وأن فى بعض رمال الصحراء التى ظلت ملايين السنين مهملة تذروها الرياح ؛ ماعرف لها من الخواص وما تصلح له مما هدى الله إليه أهل العلم الحديث ، ثم من ذا الذى يعرف مدى مايصل إليه علم الناس وقدرة الناس فى المستقبل وهم خلق محدود العلم والقدرة ، وفيهم يقول الله عز وجل : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . « وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء » فهل يجوز أن يصدر من هذا الإنسان المحدود استبعادُ شيء من الممكنات العقلية على الله ، وقد مكنه الله من الأرض ومن الحياة هذا التمكين ؟

وبذلك يجب استبعاد هذا الاستبعاد ، ويجب ألا ينسب للعلم أو العقل القول به أو الميل إليه .

الشبهة الثانية بلسان المنكرين المعاصرين :

ولننظر بعد ذلك فى الجانب الآخر من الشبهة على الوحى ، فإن بعض الناس يقول إن الله تعالى خلق الإنسان وألهمه العقل ليميز به الخير من الشر ، والنافع من الضار . وما ينبغى أن يسلكه من السبل وما ينبغى أن يتركه ، وبالعقل ارتفع الإنسان عن مستوى الحيوان الأعجم ؛ واستطاع على مابه من الضعف الجسمى أن يسخره ويطوّعه ، كما استطاع أن يجوب آفاق الدنيا وأن ينفذ بنور بصيرته إلى كل شيء ، وها هو ذا قد فرغ أو كاد من الأرض وما عليها واتجه بآماله

إلى السماء يتطلع إلى أن يعلم علمها ويدرك أسرارها ، ويقتحم كواكبها ، فماذا بقى له حتى يحتاج إلى الوحى أو يستمد الهدى من كتاب ينزل أو نبى يرسل .

هل الأرض محتاجة إلى هداية السماء وفيها هذا القبس العلوى من نور الله وهو العقل ؛ إن هؤلاء الذين قادوا البشرية فى عهود الظلمات وسماهم الناسُ الأنبياء أو الرسل ماهم إلا عقلاء ممتازون قد صفت جواهر عقولهم ، واتسعت آفاق تفكيرهم فرأوا بعين بصيرتهم مالم يره الآخرون ، ووفروا زماناً طويلا كان على الأجيال أن تقطعه حتى تصل إلى ما وصلوا إليه ، وتعلم ماعلموا ، فلا شك أنهم نبغاء من نوابغ العقول ، ولا شك أن مارسموه لأممهم هو ثمرات طيبة من أزكى الثمرات العقلية، ولا شك أن ذلك كله هبة من السماء ، ولكن لا على معنى أن ملكا أوحى ، أو كتاباً نزل ، أو رسولا بعث ، بل على معنى أن الله وهب هذا الإنسان العقل وجعله نوراً من نوره ، وما الكتاب إلا سطور من هذا النور ، وما الرسول إلا العقل فهو للناس بشير ونذير .

الرد عليها :

هكذا يقول منكرو الوحى اكتفاء بالعقل ، وبتعبير أدق : هذا ما يمكن أن يقولوه أو ما يُعبَّر به عن شبهتهم ، فهل أصابوا شاكلة الصواب ؟ كلا إنهم أحسنوا الظن بالعقل الإنسانى حتى جعلوه رسولا هادياً ، وقبساً منيراً ، وجعلوا أثره كتاباً وافياً ، ودستوراً شافياً ، وهذا إيمان بالعقل ، وإن العقل لجدير بأن يكرَّم حقاً وبه كان تكريم الإنسان ، ولكننا شهدنا كيف تختلف العقول وتتفاوت ، وكيف يرى بعضها الشىء خيراً ويراه بعضها شراً ، وكيف تختلف لديها موازين الفضيلة والرذيلة ، وكيف تتحكم فيها الأهواء والشهوات فتلوِّن أحكامها ، وتؤثر فى إدراكها للأمور ، وكيف يعميها التعصب فترى الحق باطلا والباطل حقاً ، وكيف تخدعها العادة المألوفة كما تخدع الحواس الظاهرة فتخيِّل لها الأوهامَ حقائق ، فهل يترك الله خلقه لعقولهم فحسب ، أو تقتضى حكمته ورحمته وربوبيته أن يهدى هذه العقول ، ويحكم على اتجاهاتها المختلفة حكمه الفاصل

بين ما هو رشد وما هو غيّ فى ثوب رشد ؟ هل يترك الله الإنسان لعقله فحسب فيصطدم الناس بعضهم ببعض فى الحقائق والأحكام والنوازل كل يُحكِّم فيها عقله وما رآه ، ويعتقد أنه المصيب وغيره المخطىء ، وأنه المحقّ وغيره المبطل ، أوالخير كل الخير ، والحكمة كل الحكمة ، أن يضبط بالوحى والرسالات ما هو حق وما هو باطل ، وأن يلزم الناس حكما فصلا يدرأ الخلاف ، ويقضى على الخصومات ، ويقر الأوضاع السليمة ؟

إن الناس متساوون ، وقد ألف المتساوون ألا يخضع بعضهم لبعض خضوعا قلبياً صادقاً ، فلابد من قوة عليا يخضعون لها جميعاً ، ويرضون بها جميعاً ، قوة تحسم وتحكم وتُقبَل مقاييسُها ، ويرجع إليها المختلفون . ولابد أن تكون هذه القوة العليا إلهية ، فالإنسان خاضع للإله الذى خلقه ، خاضع له جسما ومادة وروحا . فيجب أن يكون خاضعاً له توجيهاً وتشريعاً ، وبغير ذلك يكون الإنسان متعدياً طوره ، خارجا على طبيعته ومقتضى خلقته . وبشريته . ولو ترك الناس لعقولهم ولم تُهْدَ هذه العقول بالشرائع لاختلفوا اختلافا كثيراً ، ولما كادوا يلتقون على مذهب فى الحياة يدينون به وينزلون على حكمه ، وهذه هى المذاهب الإنسانية التى ابتكرتها العقول تحير الناس ، وتقيم المشكلات ، وتعجز عن الحلول ، وتدفع إلى الحروب المدمرة ثمرات البشرية من أرواح وأموال ومنشآت ، فهل أغنى عن الإنسان عقله ، وهل سعدت البشرية بعد انطلاقها من دائرة الدين والوحى والرسالات إلى دائرة النازية أو الفاشية أو الشيوعية أو الرأسمالية ؟ .

والخلاصة أن العقل كما يقولون جوهرة نورانية ، وهبة إلهية وهبها الله عباده وجعلهم بها أكرم خلقه ، كلُّ ذلك مسلم ولا شك فيه ، ولا ينبغى أن ينكر العقل أو يرفض حكمه ، ولكن العقل مع ذلك محدود لأنه مخلوق وكل مخلوق محدود ، فيجب ألا نتجاوز به حدوده ، وإلا كنا مخالفين له .

وإذن فحكمة الحكيم ، ورحمة الرحيم ، تقتضيان ألا يترك الإنسان لمجرد العقل ، وأنه لابد للأرض من هداية السماء ، ولو قدروا الله حق قدره ، وعرفوه حق معرفته لما أنكروا هذه الحقيقة .

القرآن يثبت نبوة محمد والأنبياء قبله :

وشيء آخر في هذا المقام يجب أن نجليه حتى ينكشف كل ظل من ظلال الشبهة على الوحي والرسالة ، فإني لأعرف أن كثيراً من الناس تحوك في صدورهم بعض الشبه ولا يستطيعون أن يفضوا بها ، أو يسألوا عنها ، إما حياء وإما خوفا، فمن الخير أن نكاشفهم بما في نفوسهم لنجلوه عنهم ، ونطهر منه قلوبهم ، وبالله التوفيق :

إن بعض الناس يقول : هبنا سلمنا أن الوحي ممكن ، وأنه متفق مع الحكمة ، وأن الإنسان لا يستغني بالعقل ، فهل هذا يدل على صدق الرسل الذين ادعوا أنهم جاءوا بالرسالات ؟ هل هذا يدل على أن موسى وعيسى ومحمدا وغيرهم كانوا رسلا في الواقع كما ادعوا ؟ إن جواز حصول الشيء لا يستلزم أنه وقع فعلا ، فيبقى أن يقوم الدليل على أن هذه النبوات واقعة .

ونقول لهؤلاء : أما نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد ثبتت بمعجزته القاطعة الباقية التي هي هذا القرآن الكريم ، فلا يمكن لعقل من العقول أن يجوّز صدور هذا الكتاب المحكم من شخص نشأ يتيما فقيراً أمياً في بيئة مشركة جاهلية لم تُعرَفْ بما عُرفت به الأمم الكبرى في عصرها من العلوم والنظم ، وقد كان العالم في عهد هذا الأميّ اليتيم مضطربا أشد الاضطراب ، وكان رجال الأديان فيه مختلفين أشد الاختلاف ، فكانت البيئة القريبة لهذا الأمي بيئة شرك ووثنية ، وكانت البيئة البعيدة منه بيئة خلاف وتنافس على السلطتين : الدينية والزمنية ، فمن أين له هذا الكتاب المحكم الذي اشتمل على مبادىء الإصلاح العالمي كلها ، والذي لم يستطع العلم في أزهى عصوره أن يهدم حقيقة من الحقائق التي جاء بها ، إن القرآن الكريم قد تحدّى العرب ببلاغته وقوة بيانه فعجزوا ، ولكنه أيضاً تحدّى الزمان كله بخلوده وصحته ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وتحدى الناس في كل عصر ، فلم يستطع أحد أن يزعم أنه من وضع البشر ، اللهم إلا الذين لم يتذوقوه ولم يتدبروه ، أوالذين ينكرون الحقائق الواضحة تعصبا عليها .

وإذا ثبت بهذا الذى أجملناه أن القرآن الكريم دليل على صدق محمد ، وآية إلهية من الله للناس ، فإن جميع النبوات تثبت به : نبوة محمـــد ، ونبوة الأنبياء قبل محمد .

هذا إجمال ، أما تفصيل الكلام فى دلالة القرآن على صدق محمد صلى الله عليه وآله وسلم فى أنه مرسل من ربه ، فإنه يطول وليس هذا موضعه ، فإنما أردنا هنا أن نثبت الوحى ، وأن نبين أن ذلك يؤخذ من قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء » .

سر الاكتفاء بدليل إجمالى :

وقبل أن ننتقل من هذه النقطة ، ينبغى أن نتعرف السر الذى جعل القول فى دليل الوحى والرسالة يأتى مجملا مركزا على هذا النحو ، فنقول :

أجملت سورة « الأنعام » هذه الحقائق فى صدر الآية التى ذكرناها ، وكان هذا الإجمال اسلوباً مقصودا لم يأت عفوا ، وذلك لأن السورة قامت على أساس أنهم قوم جاحدون ، لا تجـــدى معهم الآيات ، ولا تنفع فى إقناعهم الدلائل ، فالله سبحانه وتعالى يقول فى أوائلها : « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ، فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ، ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ، ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

فالسورة إذن أمام قوم يرفضون الدلائل فى إصرار ، ويتحدون فى استكبار ، ولا يعبأون بما أصاب القرون من قبلهم ، ويطلبون ما لا يمكن أن يكون ، بينما ينكرون ما هو ممكن وما هو حاصل فعلا : يطلبون أن ينزل الله على رسوله

ملكا يؤيده وينذر معه ، بل يطلبون - كما فى آيات أخرى - أن ينزل عليهم الملك لا أن ينزل مع الرسول فحسب ، بل وصل بهم الأمر إلى أن طلبوا رؤية الرب جل وعلا ، وفى سورة الفرقان تسجيل هذين المطلبين عليهم حيث تقول : «وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا » .

وهم فى هذا متعنتون مستهزئون ، لأن الملائكة إذا نزلت كان فى نزولها نهايتهم وهلاكهم ، لأنهم لا يطيقون هذه الرؤية ولا يتحملونها بمقتضى تكوينهم البشرى، ولهذا تقول سورة الأنعام : « ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون وتقول سورة الفرقان : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حِجْراً محجورا » .

هذا مع كونهم يستبعدون على بشر أن يؤتيه الله الوحى والنبوة ، ويعتقدون الشبهة القديمة القائلة : « ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذن لخاسرون » فهم متناقضون فى تقدير قيمة البشر ، تارة يرفعون أنفسهم إلى درجة يطلبون معها أن تُنَزَّل عليهم الملائكة أو يَرَوْا ربهم ، وتارة يقررون أن البشر أقل من أن يوحى إليهم ويَتَلَقّوا عن الله بوساطة الملك ، وإنما جاء تناقضهم من أنهم عابثون مستهزئون مصرون على الإنكار غير عابئين بما يقعون فيه من خلط ، وقد بينت السورة فى هذه الآيات أن الله تعالى لو قضت حكمته بإجابتهم إلى ما يطلبون من إنزال ملك مع الرسول ، أو جعله الرسول ملكا ، لما أنزله إلا فى صورة رجل لما ذكر من عدم الاستعداد البشرى لرؤية الملك على هيئته ، وحينئذ يلتبس عليهم الأمر فيظنونه بشرا ، ولا يزالون يكررون طلب إرساله ملكا .

أسلوب السورة مع المنكرين تلقيني إنذارى :

إن هذا الموقف الذى يقفونه من الرسالة يستدعى ألا يناقشوا أو يجادلوا ، لأن النقاش والجدال مع المعاندين إنما هو جهد ضائع ، وعبث فى غير طائل

ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا ـ ولهذا تجمل السورة دليل الوحى والرسالة هذا الإجمال الذى تحدثنا عنه، وتسير معهم سيرة الإنذار والتوعد ، وتُلقِّن الرسولَ ما يقوله لهم مرة بعد مرة بلفظ : « قل » ، ولا تتركه يسترسل معهم فى حجاج ، أو يستمع إليهم فى اقتراح أو اشتراط ، أو يحزن لما يقولونه عنه وعن دعوته ، أو لما يؤذونه به ، أو يترقب من الله أن ينزل عليهم الآيات المؤيدة له ، أو أن يعجل لهم ما يستعجلون من العذاب ، تلتزم السورة فى كثير من آياتها هذا الأسلوب أسلوب أمر الرسول بلفظ : « قل » حسما للأمر ، وتلقينا للرسول ما يجب أن يقول : « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، قل لمن ما فى السموات والأرض ، قل لله » . « قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم ، قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ، قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » . « قل أىُّ شىء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد » . « قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله » . « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم » . « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله » . « قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، قل لا أتبع أهواءكم ، قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين ، قل إنى على بينة من ربى وكذبتم به ما عندى ما تستعجلون به ، إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ، قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم » إلى غير ذلك من الآيات المنذرة الملقية بالقول تلوَ القول وجوههم ، والمفضية إليهم بالحقائق والعواقب إرهاباً لهم ، وتخويفاً لكل من سار على خطتهم ، ذلك بأنهم أهل عناد وإصرار ، واستهزاء واستكبار .

هذا هو بعض السر فى إجمال الحجة ، والاكتفاء بتقريرها موجزة مركزة ، مع توجيه الأسلوب على هذا النحو التلقينى الإنذارى الرهيب ، وسنبين فيما بعد أن لهذا الأسلوب سرا آخر يضاف إلى هذا السر .

سورة الأنعام وبيان الحقيقة فى شأن الرسول :

وننتقل بعد هذا إلى جانب آخر من الجوانب التى عرضت لها سورة « الأنعام » مما يتصل بالوحى والرسالة ، فنقول .

كما وجد فى الناس من ينكر الوحى والرسالة ويرى أن البشر ليسوا مستعدين لتلقى كلام الله ؛ وجد فيهم أيضا من يسرف فى تضخيم شخصية النبى ووظيفة الرسول حتى ليكاد ينسى أنه بشر ، فتراهم ينسبون إليه علم الغيب ، وتراهم يعجبون لأكله الطعام ومشيه فى الأسواق . وتراهم يتطلبون فيه أن يكون غنيا عنده من الخزائن ما لا ينفد ، وأحياناً يطلبون منه الإتيان بالمعجزات ، ولعلهم أيضاً لا يتصورون فيه أن يغضب أو يمرض أو يحزن أو يهزم فى الحرب ، أو يُردّ عن أمل من آماله ، إلى غير ذلك من العوارض البشرية .

وهكذا يقف هؤلاء من النبوة موقفاً مناقضاً تمام المناقضة للأولين الذين ينكرونها ، فبينما يغالى هؤلاء فى النبى حتى يوشكوا أن يخرجوه عن بشريته ؛ يغالى أولئك فى إنكار ما منحه الله من قوة غير عادية تمكنه من تلقى الوحى عنه ووعيه وتبليغه للناس .

والله سبحانه وتعالى يرشد عباده إلى واقع الأمر وحقيقته ، ولا يرضى منهم أن يتجاوزوا هذا الواقع بالميل إلى جانب هؤلاء أو أولئك ، وقد كان لسورة الأنعام عناية واضحة بهذا الأمر ، فهى تبين شأن الرسول تارة على سبيل السلب بنفى شىء عنه ، وتارة على سبيل الإيجاب بإثبات شىء له ؛ وتارة على سبيل الحصر الجامع بين النفى والإثبات ، وأحيانا بتصوير ما ينتاب الرسول من العوارض البشرية كالحزن والألم وضيق الصدر والحرج ومحاولة المجاملة لجذب الأقوياء انتفاعا بهم ، ووشك الميل إلى بعض ما يريدون ، وأحياناً بتعليمه ما يردّ به على المبطلين ، وإرشاده إلى السلوك السليم فى معاملة المخالفين والموافقين ، وتسليته واستئصال بواعث اليأس الذى يتعرض له بحكم بشريته ، الى غير ذلك مما يريد الله به أن يبين للناس منزلة النبى وواقع أمره ، حتى لا يخرجوا به عن وضعه ، وحتى

لايخلطوا كما خلط الذين زعموا رسولهم ابن الإله ، ثم لم يكفهم ذلك حتى كان فيهم من اتخذوه وأمه إلهين من دون الله ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

مهمة الرسول تنحصر فى التبشير والإنذار :

تقول سورة « الأنعام » « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون ، قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ ، قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » .

بينت هذه الآيات مهمة الرسل ، وأنها لا تتعدى التبشير والإنذار : التبشير بأن الذين يؤمنون ويعلمون الصالحات هم الذين يأمنون فلا يصيبهم خوف ، ويفرحون فلا يصيبهم حزن ، والإنذار بأن الذين كذبوا بآيات الله يصيبهم العذاب بسبب فسقهم وخروجهم عما رسم الله من حدود فى العقائد والأحكام ، فالرسول إذن لم يأت بشىء من عنده ، وإنما هو مبلغ عن الله ، معرف به ، لا مثبت ولا منشىء ، وليست له قوة وراء هذا الاستعداد للتلقى والتبليغ ، لم يعطه الله خزائنه ، ولم يجعلها عنده يتصرف فيها كما يشاء ، حتى يطمع طامع فى الانتفاع المادى عن طريقه ، أو يخاف أحد الحرمان المادى إن حاد عن هذا الطريق ، فإن خزائن الله لم تزل عند الله ، ولم تزل خاضعة لسنة خاصة من سنن الله ، فالله يعطى من أحب ومن كره ، ويغنى ويفقر لا بسبب الدين والإيمان ولكن بأسباب أخرى ، فليس لأحد أن يتخذ الدين والرسول وسيلة إلى أمر من الدنيا ، وليس لأحد أن ينتظر من الرسول حرمان أعدائه ومخالفيه من متاع الدنيا ، ثم هو بعد ذلك بشر لا يعلم الغيب ، ولا يعرف ما يكون غداً : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » ثم هو لا يقول للناس إنه تخلص بالرسالة من آثار بشريته وأصبح ملكا ، وإنما هو بشر مثلهم ، وكل ما يمتاز به عليهم أنه يوحَى إليه، وأنه متبع لهذا الوحى لايحيد عنه ، فعليهم

أن يفكروا فى ذلك كله بعقولهم ، وأن يتدبروا هـذا الوضع تدبر المبصرين المدركين ، وألا يضلوا فيه ضلال العمى المتحيرين .

إنما يستجيب الذين يسمعون :

وتقول السورة : « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون ، ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء ، فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ اللهُ عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين » .

تعلمه هذه الآيات — صلوات الله وسلامه عليه — أن الناس ليسو سواء أمام الهدى الإلهى ، فنهم الجاحدون الكافرون أو المعاندون الذين ينكرون الحياة الأخرى ، ولا يعترفون إلا بالحياة الدنيا ، فهم يسيرون على هذا الأساس ، ولا يتقبلون إنذاراً ولا يخافون عذاباً ، إن هؤلاء قد سدّوا على أنفسهم منافذ الهداية ، فدعهم ولا تتجه إليهم ولا تحاول أن تضيع وقتك فى ترضيهم أو مجاملتهم أو النظر فى شروطهم التى يشترطونها للإيمان بك ، وتصديق الذى جئت به ـ ومنهم المصدقون الذين يخافون ربهم ، ويعلمون أن وراءهم يوماً ، وأنهم سيحشرون إلى ربهم فيسألهم ويحاسبهم ولا يحول بينه وبينهم أحد بولاية أوشفاعة ، وهؤلاء هم الذين يتقبلون الإنذار، لأنهم فكروا وتدبروا فخافوا ، فلتكن عنايتك متوجهة إليهم ، وليكن حرصك مقصورا عليهم .

وهذا المعنى الذى يذكره الله لرسوله فى هذه الآية هو إرشاد إلى سنة من سنن الله فى الخلق ، أو هو — بتعبير حديث — تعريف بخلق نفسى اهتدى إليه علماء النفس أخيراً ، ذلك أن الناس يختلفون من حيث تقبل الأفكار والتنكر لها ، وأن ذلك يرجع أحياناً فى نفس المنكر إلى عقـــدة خفية تجعله يرفض قبول ما يساق إليه ولو كان بادى الصحة مؤيداً بالدليل والبرهان ، وقد تكون هذه العقدة استكباراً فى النفس لأن غيره تقبله قبله، أو لأن الذى تقبله أقل منه مركزاً ،

أو لأن فى قبوله تقيداً بما لا يحب أن يتقيد به ، أو تركا لما لا يحب أن يتركه ، إلى غير ذلك ، وهذا هو الذى عناه القرآن بمثل قوله « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » ، أما الذين يتقبلون فإن نفوسهم خالية من هذه العقد ، أولهم قوة عقلية ، وشخصية مؤثرة تجعلهم يتغلبون على عوامل التردد والهوى الخفى فى أنفسهم ، وهؤلاء هم الذين عناهم القرآن بمثل قوله «هدى للمتقين» « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب » وقد جاء فى سورة الأنعام من هذا غير الآية التى نتحدث عنها قوله تعالى : « إنما يستجيب الذين يسمعون » « وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا ؛ وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولىّ ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها ، أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ، لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » .

إرشاد الرسول إلى المسلك القويم مع المخالفين والموافقين :

وقوله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم » الخ نهى للرسول صلى الله عليه وسلم عن الاستجابة إلى ما كان يطلبه إليه المستكبرون من إبعاد الفقراء والضعفاء الذين اتبعوه ، فقد جاء فى أحاديث السيرة وأسباب النزول أن الملأ المستكبرين من قريش كانوا يطلبون إلى النبى صلى الله عليه وسلم أن ينحى عن مجلسه ضعفاء المؤمنين من أمثال صهيب وعمار وخباب ، وأنهم كلموا فى ذلك مرة عمه أبا طالب ، وأن عمر أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبوله ، فجاءت هذه السورة وفيها نهى له عن الأخذ بهذا ، فالكلام فى ذلك من أول قوله تعالى : « وأنذر به الذين يخافون » إلى قوله جل شأنه : « فأنه غفور رحيم » مراد به إرشاد النبى صلى الله عليه وسلم إلى ما يسلكه فى هذه القضية ، وتعليم له أن صاحب الفكرة والمبدأ يجب ألا يجامل فيه قوياً لقوته ، وألا يستهين بضعيف لضعفه ، فإنما العبرة بالإيمان ، والولاية والأولوية لأهل الإيمان .

والعبارات الواردة فى هـــذه الآيات شبيهة بمـا جاء فى قصة نوح عليه السلام حيث يقول له قومه : « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل » وحيث يقول لهم : « وما أنا بطارد الذين آمنوا » « من ينصرنى من الله إن طردتهم » .

وهكذا نعلم أن الناس هم الناس ، لا فرق بين الذين كانوا فى عصر نوح ، والذين كانوا فى عصر محمد ، وإننا لنرى خلفاً بيننا لهؤلاء السلف يحاولون احتكار مجالس الحكم والسلطان والتوجيه دائماً ، ويحبون أن تخلو لهم وجوه الحاكمين والمصلحين بحجة أنهم الأشراف والسادة الأقوياء ، وأن الآخرين هم الضعفاء والمسودون .

وتبين الآيات بعد هذا أن الله تعالى يمتحن عباده ليُظهر الذين يعرضون عن تقبل الحقائق استكباراً أو غروراً وترفعاً عن قبول ما قبله المستضعفون ، أو حسداً لهم على ما آتاهم الله من فضله .

وقد حدثنا التاريخ أن هذا دائماً هو أسلوب المستكبرين ، وأن الحق إذا ظهر من جانب الضعفاء أو أصحاب المراتب الصغيرة أحجم عنه أهل الغرور بأنفسهم والمُدِلُّون بما لهم من مراتب عليا فى مجتمعهم ، فنراهم يقولون بلسان حالهم أو بلسان مقالهم مثل ماقال الأولون : « أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ؟ » .

وفى هذا أيضاً إرشاد لسنة من سنن الله فى الناس ، وهى أن أصحاب المواهب وأهل الذكاء والعاملين المخلصين من شأنهم أن يحسَدوا وأن تمتلىء قلوب المتخلفين عنهم ببغضهم والحقد عليهم ، وأن على الولاة والرؤساء أن يدركوا ذلك ويحترسوا منه ، ولا يَدَعوا سبيلا للحاسدين والحاقدين ، تمكنهم من إقصاء العاملين المخلصين ، شفاء لما فى صدورهم من الحقد ، وإطفاء لنيران الحسد التى تأكل منهم القلوب .

وتأمر السورة بعد هذا بإحسان معاملة المؤمنين وتبشيرهم برحمة الله ومغفرته حيث تقول : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم

على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم » .

وهـذا تعليم إلهى من الله لرسوله فى مقابل ما كانوا يراودونه عليه ، من طرد المؤمنين وإقصائهم ، وإنه لأدب كريم يجب أن يحمله كل مصلح نصب عينيه ، وأن يطبقه فى معاملته لأصحابه ومعتنق فكرته ، فإن من أحسن ما يملك القلوب اعتراف الكبير بإحسان الصغير ، إن له فعل السحر فى النفوس ، إذ يبعثها على المبالغة فى التجويد والإتقان والإخلاص ، وعلى العكس من ذلك إذا أنكرت الجهود النافعة ، ونُسيت الأعمال الصالحة ، وتجاهل الرئيس ما يبذله المرءوسون من جهود ؛ فإن ذلك يكسر نفوسهم ، ويَفتّ فى عضدهم ، ويبدّلهم بالإخلاص والدأب تهاوناً وتراخيا .

وأدب آخر فى هذه الآية الكريمة هو التوجيه إلى التبشير ، والابتعاد عن التنفير ، فإن التبشير من شأنه أن يبعث النشاط ، ويزيد الطاقة ، والتنفير من شأنه أن يهد القوى ، ويفسد النفوس .

تسلية الرسول :

وتقول سورة « الأنعام » فى تسلية الرسول ، واستلال عوامل اليأس والحزن من قلبه : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين ، وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحزن ويشتد حزنه لما يقابله به قومه من الإعراض والتكذيب ، ويخشى على دعوته أن يطول عليها أمد تكذيبهم ، وكان حزنه وإشفاقه يصلان إلى مدى بعيد حتى ذكر القرآن الكريم فى بعض الآيات أنه حزن يكاد يؤدى إلى ذهاب نفسه وهلاكها حيث يقول :

« فلاتذهب نفسك عليهم حسرات » . « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » وهذا الحزن الشديد مظهر من مظاهر بشريته صلى الله عليه وآله وسلم ، وكذلك احتياجه إلى التسلية والتثبيت ، فإن الله سبحانه وتعالى كان يتعهده بذلك فيما ينزل من القرآن ويضرب له أمثال السابقين ، ويقص عليه قصص المرسلين ، فالنبوة لم تخرجه عن مقتضى بشريته من التأثر بدواعى الحزن ، والحاجة إلى التقوية والتثبيت ، وفى هذه الآيات من سورة الأنعام ذكر الله له أنه يعلم حزنه ، وأن هذا الحزن لما يقوله أعداؤه عنه وعن دعوته ، ثم سلاه وخفف عنه حزنه بتعريفه أن هذا الإعراض الذى يراه منهم ليس راجعاً إلى أنهم يعتقدون كذبه ، فقد جربوا عليه الصدق طول حياته ولم يعهدوا عليه كذبا ، ولكن هذا الإعراض راجع إلى شأن عام لجميع الظالمين من أعداء الحقائق فى كل زمان ومكان ، فقد جرت عادة الظالمين أن يجحدوا بآيات الله ، والجحود هو نفى مافى القلب إثباته ، أو إثبات مافى القلب نفيه ، فهم يعلمون أن آيات الله حق ، وأنك صادق فيما تبلغه عن ربك ، وهذا كما جاء فى موضع آخر حيث يقول الله عز وجل : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » ومصداقه من السيرة ماروى من قول بعض هؤلاء الجاحدين : « تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرفَ : أطعموا فأطعمنا ، وحَمَلوا فحملنا ، وأعطوْا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرَسىْ رِهان قالوا منا نبىٌّ يأتيه الوحى من السماء ! فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ! » .

ثم ضرب الله تعالى لنبيه مثل الرسل من قبله حيث صبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى جاءهم نصر الله ، فكان ذلك بشارة قرت بها عينه، وثلج لها صدره ، وعقب ذلك بأن هذه سنة الله فى الرسل وكلماته التى لا مبدل لها « ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين » وشبيه بهذا قوله تعالى فى آيات أخرى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون . .

وقد جاء فى مواضع أخرى من القرآن الكريم أن هذه السنة ليست خاصة بالرسل ، وإنما هى عامة فى المؤمنين المصلحين ، إذ يقول الله عز وجل : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » . « ولينصرن الله من ينصره » . « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .

فكما أن هذا كان تبشيرا للنبى ، واستلالا لبواعث الحزن من نفسه ، ينبغى أن يأخذه كل مصلح مؤمن داع إلى الله ، بشرى يثبت بها فؤاده ، ويقوى بها عزمه ، ويسير بنورها وهداها فى طريقه منتظراً النصر من ربه وإن تحالفت عليه الأعداء وكثرت فى سبيله العقبات ، فإن الإخلاص يذلل الصعاب ، ويفتح الأبواب ، وإن الله مع الصابرين .

ولقد شاء الله تعالى أن يحسم كل أثر من آثار حزنه صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن ينقذه من ترقبه لآية من الآيات التى كانوا يطلبونها ليؤمنوا به ، حيث كانوا يقولون : « لولا أنزل عليه آية من ربه » فقال له عز وجل : « وإن كان كبر عليك إعراضهم . . . » الخ والمعنى لسنا بمجيبى هؤلاء إلى مايطلبون من الآيات فإن كان إعراضهم قد كبر عليك وأهمك إلى هذا الحد ، فانظر ماذا تستطيع أن تفعل ، أتبتغى نفقا فى الأرض تتعمق فيه حتى تاتيهم بآية ؟ أم تبتغى سلما فى السماء تصعد به حتى تحقق لهم ذلك ؟ أما الله فإنه لن يحققه ولن يجيبهم إليه ، ولو أنه أراد منهم إيمان الإرغام والإلجاء لجمعهم على الهدى ، وهيأهم على استعداد يجعلهم يتقبلونه خاضعين ، كما خلق أصنافا أخرى من خلقه ، وهم الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فلا تكن من الجاهلين ، فتطلب أو ترقب مالم تقتضه حكمة الله .

كل هذا فيه تسلية للنبى ، وفيه مع ذلك تصوير بليغ لمقتضيات بشريته ، ودليل على أن الله تعالى يعالجه كما يعالج البشر ، ولو شاء لطبعه على طبيعة أخرى يكون معها بعيداً عن التأثر بالعواطف البشرية التى يعالجه منها .

٤

قضية البعث والجزاء ومنهجنا فى الكلام عنها :

(١) عناية القرآن الكريم بهذه القضية ، وسر هذه العناية — العقائد الدينية ما هى إلا حقائق ثابتة يكشف عنها الدين — الدين إنما يهتم بالحقائق التى تفيد تربية وتهذيباً وإصلاحاً للفرد والمجتمع — من هنا يبرز سر العناية بقضية البعث .

(ب) منهج القرآن الكريم فى معالجة المنكرين لهذه القضية — ألوان التفكير فى هذا الشأن : الإنكار القائم على الاستبعاد — الإنكار القائم على التفلسف والتباصر بالعلم — الإنكار المنبعث عن العناد والمكابرة — ما عالج به القرآن كل لون من هذه الألوان .

(ج) نصيب سورة « الأنعام » من هذا المنهج القرآنى وبيان السر فى اقتصارها عليه — معان يمكن أن تؤخذ من كون الأنعام أول سورة نزلت بعد الأمر بإعلان الدعوة والصدع بها — « الخلاصة العنوانية » فى السور الطوال عامة ، ثم فى سورة « الأنعام » خاصة .

كما تحدثت سورة الأنعام عن الألوهية والربوبية ، وعن الوحى والرسالة وما يتصل بهما من بيان مهمة الرسول وإرشاده إلى المسلك القويم الذى ينبغى أن يسلكه مع المخالفين والموافقين ؛ تحدثت عن الغرض الثالث من أغراضها الرئيسية ، وهو تقرير عقيدة البعث بعد الموت ، وأن هناك دارا أخرى يحاسب الناس فيها على أعمالهم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وكلامنا فى هذا الموضوع يرجع إلى هذه النقط :

(١) عناية القرآن الكريم بقضية البعث والدار الآخرة ، وسر هذه العناية .

(ب) منهج القرآن الكريم فى معالجة المنكرين لهذه الحقيقة .

(ح) نصيب سورة الأنعام من هذا المنهج القرآنى فى معالجة القضية ، وبيان السر فى اقتصارها عليه .

وهذا هو التفصيل :

١ — عناية القرآن الكريم بقضية البعث والدار الآخرة ، وسر هذه العناية

١ — إن العقائد التى يَفرِض علينا الدين أن نؤمن بها ما هى إلا حقائق ثابتة فى نفسها لها وجود واقعى ، وهى تفترق فى هذا عن المبادىء والأحكام التى هى من قبيل الإنشاء ، والتى تُشرَّع للناس بعد أن لم تكن ، وتتغير بتغير الزمان والمكان ، وتقبل النسخ فى عهد الرسالة .

وإذا أردنا أن نعبر عن هذا المعنى بالتعبير الفنى المستعمل فى علم أصول الفقه فإننا نقول : إن العقائد من باب الأخبار ، والأخبارُ لا تقبل النسخ . ومعنى كونها من باب الأخبار أن الشارع لا ينشئها ولكن يخبر بها ، ويحدّث عنها ، ويكشف للناس عن واقعها وحقيقتها ، وإنما كانت غير قابلة للنسخ لأن النسخ هو الإبطال والإزالة ورفع الحكم الأصلى ، والحقائق لا تزول ولا تبطل ولا يمكن رفع حكمها .

ويأتى بعد ذلك دور التكليف بها ، وإيجاب اعتناقها على جميع المكلفين .

وإذن فالعقائد يتصل بها حكمان : حكم طبيعى أو عقلى ، وذلك هو ثبوتها فى نفسها وتقررها فى واقع الأمر وعدم قابليتها للإلغاء والإبطال ، وحكم تكليفى فقهى هو كون الإيمان بها بعد انكشافها وتبين واقعها واجبا على كل مكلف .

٢ — والحقائق الثابتة فى نفسها كثيرة فى هذا العالم الذى نعيش فيه ، وفيما وراءه .

وليس من شأن الدين ولا من غرضه الذى يرمى إليه أن يُعَرِّف الناس بكل

الحقائق . ويقررها لهم ، ولكنه إنما يهتم بنوع خاص من الحقائق هو الذى يترتب عليه تربية خلقية يصلح عليها الفرد والمجتمع .

فالأديان لا يهمها أن أعتقد مثلا أن هناك كوكباً معيناً اسمه « المريخ » أو أن هذا الكوكب فيه حياة ، أو ليست فيه حياة ، ولا تترتّب على هذا الاعتقاد ـ إيجابيا كان أو سلبياً ـ تكليفاً ولا حسابا .

ولا يهمها أن أعتقد أن الأرض كروية الشكل ، أو ليست كروية ، ولا أن أعتقد أن لها دورتين ، أو دورة واحدة . . . إلى غير ذلك من القضايا العلمية ، والحقائق الكونية .

وليس معنى ذلك أن الدين لا يهتم بالعلم ، ولا يلقى باله إلى ما فى الكون من حقائق وسنن ، ولكن الكلام إنما هو فى اعتقاد شىء من ذلك اعتقاداً دينياً أو عدم اعتقاده ، فما دام لم يرد به نص قاطع ولم يصادم الاعتقادُ به أصلا من أصول الدين ، فالأمر فيه طلق ، ولا ضير فى الدين من إثباته أو إنكاره .

٣ ــ والحقائق التى عنى الدين ببيانها ، لما يترتب عليها من تربية خلقية ، وتهذيب وتقويم فى العمل والسلوك ، ترجع إلى جوامع ثلاث ، لكل منها ما يتصل به ويأتى مكملا له ، وهى : الألوهية ، والوحى ، والبعث .

فالألوهيه حقيقة يتصل بها كثير من الحقائق ، كصفات الإله الوجودية والسلبية ، وهذه الدائرة أو هذه الجامعة من شأنها أن توجه الإنسان إلى الصراط المستقيم ، لأنه إذا علم أن للكون إلهاً واحداً ، وأن كل ما هو من سوى هذا الإله الواحد خاضع له مدين لحكمه ، عرف قيمة نفسه بالنسبة للآخرين ، وسار فى حياته فى ظل الشعور بالمساواة ، لا بالضعف ، ولا بالذلة ، ولا بالهوان ، ثم عرف قيمة نفسه بالنسبة إلى ربه وخالقه الذى يجب أن يكون إلهه ومقصده فى جميع أعماله وتوجهاته .

فالألوهية وصفاتها وما يتصل بموضوعها حقائق ثابتة ، وهذه الحقائق لها قيمتها التوجيهية فى حياة الإنسان ، ولذلك بينها الدين ، وكشفها للناس ، ثم أوجب عليهم الإيمان بها ، ولم يقبل فيها مهادنة ولا مجاملة ولا تبديلا ولا تحويلا ،

ولم يكلهم فى شأنها إلى أنفسهم ، كما وكلهم فى الحقائق الدنيوية .

وقل مثل ذلك فى الوحى ، فهو حقيقة واقعة ، ومن شأن الإيمان بها أن يوجه الإنسان إلى التماس هداية الله وتقبلها ، وعدم اتباع الهوى ، والتفرق بالنزعات ، ولذلك عنى الدين بها فقررها وبينها ، وطلب إلى الناس أن يؤمنوا بها.

وقل مثل ذلك فى البعث والدار الآخرة وما يتصل بها ، فهى حقائق غيبية يترتب على معرفتها والإيمان بها مصلحة عظمى للناس ، إذ بها يعرف كل إنسان أنه محاسب على ما يعمل من خير أو شر ، وأن الأمر ليس عبثا ، وأن الناس لن يتركوا سوى وبهذا يتجه فى حياته اتجاها مستقيما ، ويعلم أنه إن خالف هذ الاتجاه المستقيم ، فهو معرض لخطر شديد ، ولخسران مبين .

هذا هو السر فى الاهتمام بتلك الحقائق الثلاث ، أو بتلك العقائد الأساسية فى جميع الأديان . ومنه يتبين السر فى عناية القرآن بقضية البعث والدار الآخرة ، وما أعد الله فيها من ثواب وعقاب .

ب — منهج القرآن الكريم فى معالجة المنكرين لهذه الحقيقة

إن إنكار البعث أو الشك فى أمره ، يرجع فى ذهن المنكر أو الشاك إلى ألوان ثلاثة من التفكير :

اللون الأول : هو استبعاد الأمر لما فيه من غرابة ، ولأنه يخالف المألوف المعهود ، فصاحب هذا اللون من التفكير يقول : هذا أمر لم أعهده ولم يعهده أحد من الناس قبلى ، فما سمعنا أن ميتا قام من رمسه ، ولا نستطيع أن نتصور جسما يتعفن ويصيبه الانحلال والفساد ثم البلى والذهاب فى تراب الأرض ، ثم يعود فتلتئم أجزاؤه ، ويتماسك بعد الانحلال ، بل بعد الفناء ، وترجع إليه الحياة كما كانت ، إن هذا لأمر بعيد .

وقد جاء هذا الاستبعاد على لسان المنكرين فى غير موضع من القرآن الكريم من مثل قوله تعالى : « وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ »

« أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد » « أئذا متنا وكنا ترابا ؟ ذلك رجع بعيد » « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ؟ أفترى على الله كذبا أم به جنة » إلى غير ذلك من الآيات .

وطريقة القرآن فى الرد على هؤلاء ومعالجة هذا الاستبعاد أن يقول لهم : إنكم قد غفلتم عن كثير من آيات الله التى تشاهدونها بأعينكم ، وقد صارت لديكم أموراً مألوفة ، لكثرة حدوثها ، وتكرر رؤيتها .

فهذه الأرض تكون ميتة هامدة فينزل الله عليها الماء فتصبح مخضرة ناضرة بالزرع والنبات :

« وترى الأرض هامدة ،فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحي الموتى ، وأنه على شىء قدير ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث مَن فى القبور »

« ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج »

وهؤلاء هم الناس ينامون ويضرب الله على آذانهم مدة من الزمان يكونون فيها كالموتى ثم يبعثون ، وذلك هو المعنى الذى صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى به فى قومه حين أمر أن يصدع بدعوة الحق بعد أن كان مستخفياً بها ، فقال « والله لتموتُنَّ كما تنامون ، ولتبعَثُنّ كما تستيقظون ، ولتحاسَبُنَّ بما تعملون »

هذا قريب مما جاء به القرآن الكريم فى قوله تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »

وهناك آيات كثيرة فى الرد على الذين ينكرون البعث استبعاداً ، أساسها أن الله لا يعجزه شىء ، وليس شىء عليه بالبعيد ، فهو القوى القادر الذى خلق الخلق وأنشأه من العدم ، فكيف يصعب عليه أن يعيده ؟

« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »

« كما بدأنا أول خلق نعيده »

« وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ، قل كونوا حجارة أوحديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا؟ قل الذى فطركم أول مرة »

« وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون . وهو الذى يحيى ويميت ، وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ، بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أئنا لمبعوثون ؟ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ، إن هذا إلا أساطير الأولين ، قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون »

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه : قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة »

« يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب »

إلى غير ذلك من الآيات التى تذكر قدرة الله ، وتذكر بنشأة الخلق ، وترد عليهم استبعادهم للأمر .

* * *

اللون الثانى : من ألوان التفكير التى يرجع إليها إنكار هذه القضية أنه لافائدة ولا ثمرة يمكن أن تقصد من البعث ومن أن يحشر الناسُ إلى دار أخرى .

وهذا اللون من التفكير منبعث عن نظرية فلسفية عميقة الجذور فى التاريخ خلاصتها : أن الكون قد وجد مشتملا على جميع العوامل التى تؤدى إلى تفاعله ذاتيا وتلقائيا ، فليس هناك مؤثر فيه من خارجه ، بل كل ما فيه هو منه ، وهو قائم على التوالد والتفانى الذاتيين ، فالناس مثلا يحيون بالتوالد الذى هو نتيجة التزاوج بين الذكر والأنثى ، ثم يمرون بأدوار الطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة حتى يصلوا إلى الانهيار التام فالموت ، وكل ذلك بفعل

الزمن الذى مروا به ، والحياة التى لبسوا ثوبها ، واحتملوا تصاريفها وأثقالها ، وإذن فليس وجودهم إلا نتيجة حتمية للتفاعل الحيوى ، وليس موتهم أيضا إلا نهاية طبيعية لهذا التفاعل . فالعدم سابق للأحياء لاحق لهم بحكم التوالد الذاتى، وإذا كان الله هو الذى خلق العالم ، فقد خلقه وأودعه جميع الخواص والعناصر التى صار بها مستقلا متفاعلا ذاتيا .

وينبغى أن يُفرق هنا بين الإيمان بالله كخالق ، وبين الإيمان به كمصرف مدبر لكل صغيرة وكبيرة لهذا الخلق ، فإن من الفلاسفة من يؤمن بالله خالقا ويزعم مع ذلك أنه خلق الأشياء وتركها لمصيرها وتفاعلها الذاتى ، وأن أجل كل شىء هو مدى طاقته وصلاحيته للبقاء والتفاعل الحيوى ، فإذا بطل هذا من شىء فقد حان حينه ، وحق عليه الفناء بمقتضى السنن الكونية الطبيعية ليس إلا[1] .

وهذه النظرية هى التى يشير إليها القرآن فى قوله تعالى « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » .

وقد جاء هذا التعبير فى آية آخرى مع التصريح بإنكار البعث ، وذلك قوله تعالى « وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » .

وربما سأل القارىء عن مراحل الانتقال الفكرى فى هذه النظرية ، وكيف تنتهى إلى إنكار الحكمة من البعث ، وله الحق كل الحق فى ذلك ، فإنها نظرية قائمة على الخداع والمغالطة ينتقل فيها الفكر هكذا :

« كل ما فى الكون إنما هو منه على سبيل التفاعل مع حكم الزمن ، وليس هناك مؤثر خارجى » .

« ويلزم من ذلك أنه ليس هناك حكمة يمكن أن تتصور للبعث وحشر الناس إلى دار أخرى ، لأن تصور الحكمة فرع عن إرادة الفاعل القاصد ، وهنا لا فاعل يمكن أن يكون قاصدا » .

---

(١) وفى هذا شىء من الشبه بالدهريين الذين يرون العالم قديما أزلا ، باقيا أبدا ، ولكن الدهريين منكرون للاله ، لذلك قلنا إن هذه الفكرة لها أصل معرق فى التاريخ ولم نقل إنها هى بعينها فكرة الدهريين ، كما قد يفهم من ذكر الدهر فى قول الآية : « وما يهلكنا إلا الدهر » .

« وإذن فلا حكمة ، وبالتالى فلا بعث » .

وهذا اللون من التفكير الفلسفى يختلف تمام الاختلاف عن اللون الأول ، فاللون الأول تفكير سلبى بدائى يستطيعه العقل العادى ، لأنه لا يكلف جهدا ، ولا يستلزم عمقا ، أما اللون الثانى فهو تفكير الذين يقابلون الدعوى بإنكار يصاحبه فرض عقلى مخالف ، فهو لا يكتفى بمجرد الاستبعاد ، ولكنْ يُخَرِّج أمر الحياة تخريجا آخر حتى ينفى حكمة البعث ، فينتفى أن البعث حقيقة مقصودة ، وواقع لا بد منه .

وقد كان من حكمة القرآن أنه لم يترك هذا اللون من التفكير تركا تاما حتى كأنه لم يكن ، ولم يكثر فى الوقت نفسه من ترديده ، ولم يُفِضْ فى بيان وجهة أصحابه ، كما أفاض فى وجهة المستبعدين .

بيان ذلك أن الإشارة إلى هذا التفكير لم تجىء إلا فى موضعين اثنين ، هما الموضعان اللذان ذكرناهما ، أحدهما فى سورة « المؤمنون » ، والآخر فى سورة « الجاثية » أما قوله تعالى فى سورة « الأنعام » « وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » فليس من هذا القبيل ، وإنما هو من قبيل اللون الأول ، فلم تُذكر فيه نظرية الحياة والموت التلقائيين ، ولا أن الإهلاك مرجعه إلى الدهر ، كما ذكر فى الموضعين الآخرين .

وإذن فالقرآن الكريم يذكر هذا اللون الفلسفى مقتصدا فيه ، غيرَ حريص على الإكثار من ترديده ، بل نستطيع أن نقول إنه يكتفى فيه بالإشارة دون الإفصاح والإيضاح ، فما هو السر فى ذلك ؟

السر فى ذلك أن القرآن يخاطب الفطرة فى الإنسان ، ولا يحب أن يثير على هذه الفطرة غبار الفلسفة ، ولا أن يشغلها بتعقل المعانى المتكلفة ، فهو يكتفى بالإشارة إلى أصل الفكرة ، ثم يهاجمها ويهدمها ، وهو حين يهاجم ويهدم لا يقتصد فى ذلك ولا يكتفى فيه بأدنى الجهد ، ولكن يطيل ويكرر ويحيط الفكرة الباطلة بالحجة من بين يديها ومن خلفها ، وتأتى حجته ملائمة للفطرة ،

سهلة على العقول ، لأنه يريدها خطابا للناس جميعا من كل مستوى عقلى ، ولا يخص بها تفكيراً معينا دون سواه .

ولعل مما يؤيد ذلك أن القرآن حين يسوق هذه الفكرة فى سورة « المؤمنون » يسندها إلى قوم من أقوام الرسل السابقين ، يصفهم بأنهم الملأ الكافرون من قوم هذا الرسول ، أى أصحاب الكثرة والسلطان ، ثم يصفهم بأنهم هم المترفون فى الحياة الدنيا ، ويفهم من قولهم أنهم كانوا دعاة ثائرين على الحق ، متجردين لدعوتهم ، متكلفين للشُّبه والأباطيل فى سبيلها ، ولكى يصاحبنا القارىء فى فكرتنا نثبت الآيات التى جاءت فى هذا الشأن ، وذلك قوله تعالى فى سورة « المؤمنون » :

« ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين (١) ، فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، أفلا تتقون ، وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا : ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ، أيَعِدُكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ، هيهات هيهات لما توعدون ، إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين . إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين » .

وأفكار المترفين من شأنها أن تسير فى اتجاه الهوى والغرض إذا وجهت إليهم دعوة يخشون أن تزيلهم عن مكانتهم ، وتعكر عليهم صفو ترفهم وغناهم ، والقرآن حرب على هؤلاء المترفين ، لأنهم فى الحقيقة هم مصدر الجحود والإفساد والالتواء عن الصراط المستقيم « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مُتْرَفيها ففسقوا فيها فحق عليها القولُ فدمرناها تدميرا » « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مُترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا إنا بما أرسلتم به

---

(١) الضمير فى قوله « من بعدهم » لقوم نوح ، والقرن الآخرون قيل هم قوم عاد ، وقيل هم قوم ثمود ، ولكل من القولين مايستند إليه استنباطه ، ولا يتعلق هنا غرض بتعيين القائلين .

كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ، « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يُصرُّون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، أوَ آباؤنا الأولون ، قل إن الأولين والآخرين لمجموعون . إلى ميقات يوم معلوم » .

وقد جاء ذكر هذه الفكرة الفلسفية فى سورة الجاثية بين آياتٍ مِنْ قبلها وآياتٍ مِنْ بعدها ، قد حشدت فيها الحجة بعد الحجة على نحوٍ قوىٍ ، وأسلوبٍ فريدٍ ، وتتبع عجيب ، وتلك هى الآيات كاملة :

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتُجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » .

ونقف هنا وقفة يسيرة لنقول : إن الرد على هذه الفكرة ذو شقين :

أحدهما أن الله خلق السموات والأرض بالحق أى لا عبثاً ولهواً كما تستلزم هذه الفكرة : فكرة أن كل ما فى الكون وما يحدث فى الكون ، فإنما هو من الكون وبه ، كما هو فيه ـ وأنه لا شأن للخالق بالخلق بعد أن خلقه وأودعه عناصره ومادة تفاعله ، وفى آية أخرى : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » وفى آية ثالثة « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ، لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين » فالمعنى : كيف يكون ذلك ، وهل هذا إلا العبث واللهو تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

والشق الثانى من الرد إثبات الحكمة من البعث ، وهى المجازاة على الأعمال .

وقد قدمت الآية هذين الشقين ، وساقتهما بأسلوب العطف المنبىء بأنهما شقان وناحيتان ، حيث قالت « وخلق الله السموات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » .

ونعود بعد ذلك إلى الآيات . « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون » .

والحديث فى هذه الآية عمن أضله الله على علـــم ، يشعرنا بأن أصحاب هذه الفكرة كانوا من الذين يستخدمون العلم فى التلبيس والمجادلة .

« وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنُّون » .

وقد عاجلهم الله بعد ذكر فكرتهم بالرد المنبيء عن خلوها من الدليل والبرهان العلمى : « وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » .

ومن هنا نأخذ إن الذين يتشدقون بالفروض العقلية ، ويحاولون أن يثيروا بها على العقائد الدينية جدالا وسفسطة ، إنما يضربون فى أودية من الظن والخيال ، ومن العجيب أنهم يعترفون بأن أحكامهم فى ذلك إنما تقوم على افتراضات ذهنية ، وتعليلات متخيلة ، ومع ذلك يأخذون بها ، ويتركون ما جاء عن الله ورسوله ، بحجة أن العلم شيء والدين شيء آخر ، فهل الفروض والتخيلات تنتج علما ، والنقول الصحيحة عن العليم الخبير لا تنتج هذا العلم ؟

الواقع أن هذا التواء فى التفكير ، وأن هذا الالتواء قديم ، ولهذا الخلف فيه سلف هم على آثارهم مقتدون « وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » .

ونعود إلى الآيات فنستكملها أمام القارىء ليتابع الفكرة فيها :

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ، قل الله يحييكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ولله ملك السموات والأرض » أى والمالك الحكيم القادر لا يترك ملكه سدى ، ولا يملكه عبثاً « ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون »

يتبين من هذا أن منهج القرآن فى هذه الفكرة ، يقوم على الاقتصاد فى ذكرها وعدم التفصيل لها ، كراهية منه لأساليب المتكلفين والمُغْربين ، وحرصا على أن يكون خطابه موجها إلى الفطرة فى صفائها ، وألا يهيج على هذه الفطرة ما لا يلائمها ، أو ما يشق عليها , ولكنه يهاجم هذه الفكرة هجوما عنيفا من ناحية بيان أن الله خلق الخلق بالحق ـ أى وما لا غاية له لا يكون بالحق ، وإنما يكون لهوا وعبثا

« سبحانه وتعالى عما يصفون » - وأن الحكمة إنما تتحقق حيث يكون الخلق ابتلاء واختبارا ، يعقبه بعث للحساب والجزاء .

واقرأ فى ذلك مثل قوله تعالى :

« ولله ما فى السموات والأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » .

وانظر معنى اللام فى قوله « ليجزى » وربط هذه الغاية بكون العالم مملوكا له جل وعلا ، فإن هذا ينبىء عن فكرة الرد عليهم كما أوضحناها .

ثم اقرأ قوله تعالى « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون » فقد بين جل شأنه أن الخلق الذى يوكل إلى نفسه دون رجوع إلى مالكه ، إنما يصدر عن العبث ، تعالى الله وتنزه .

* * *

اللون الثالث : من ألوان الإنكار لقضية البعث والجزاء ، هو إنكار المعاندين لجاجا ومكابرة بعد وضوح الحجة ، فيقول المنكر : لا أصدق هذا ، ولا أقبله مهما قيل فيه ، أو يقسم على نفيه ، أو ما إلى ذلك من ألوان الإنكار عن لجاج وعناد .

وموقف القرآن الكريم من هؤلاء المكابرين أنه يجابهم بالدعوة ويكررها عليهم مرة بعد مرة ، ويقسم عليها فى مقابلة قسمهم ، ويصور لهم يوم القيامة وأهواله كما لو كانوا يشاهدونه تخويفاً لهم وإرهابا .

ومن ذلك قوله تعالى :

« زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم » .

« وأقسموا بالله جَهْد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعدا عليه حقا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

« ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ، ربنا أبْصرْنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون» إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تصور أهوال

القيامة ، وحيرة الكافرين ، واعترافهم بعد رؤية العذاب المبين .

حـ — نصيب سورة الأنعام من هذا المنهج القرآنى في معالجة القضية ، وبيان السر فى اقتصارها عليه

---

١ — سورة الأنعام كما قلنا فيما سبق نزلت فى السنة الرابعة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] بعد أن أمر فى سورة الحجر النازلة قبلها مباشرة بأن يصدع بما يؤمر ، أى بأن يعلن دعوته ويجابه المشركين بها بعد أن كان يبثها سرا .

وهذا يفسر لنا أموراً مما جاءت به هذه السورة :

١َ — فإن نزولها بعد إعلان الدعوة والجهر بها يجعلنا نفهم أنها أول فرصة للإعراب علانية عن مبادىء العقيدة الثلاثة فى الألوهية والربوبية ، وفى الوحى والرسالة ، وفى المعاد الجثمانى للحساب والجزاء ، ولذلك اشتملت على بيان الحق فى هذه العقائد الثلاث ، وكانت هى أغراضها الرئيسية كما أوضحنا .

٢َ — ثم هذا المعنى نفسه - وهو كونها أول ما نزل بعد أمر الرسول بالصدع والجهر - يعطينا تفسيرا آخر لما لاحظناه من أن أسلوبها فى تقرير الحقائق تلقينى إنذارى يكثر من أمر الرسول بأن يقول لهم ما شاء الله من الحقائق واحدة بعد الأخرى : قل كذا - قل كذا ، « قل سيروا فى الأرض فانظروا » ، « قل لمن ما فى السموات والأرض ، قل لله » « قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » إلى غير ذلك مما صُدِّر بلفظ « قل » إنذارا وتبليغا بالقول تلوَ القول .

والتفسير البلاغى أو النفسى لهذا الأسلوب ، زيادة على ما قدمناه ، هو أن هذه الحقائق تعلنُ لأول مرة ، وتُقرَع بها الأسماعُ جهرا بعد أن كانت

---

(١) راجع أول هذا البحث .

لا تلقى إلا سراً وفى بيئة محصورة ، وإذن فلا بد من إعلانها تقريرا وإبلاغا ودعوى ، وأسلوب ذلك بعد أن قيل له « فاصدع بما تؤمر » أن يقال له : قل كذا ، قل كذا ؛ ولا يتعارض هذا مع سَوْق الحجة فى بعض هذه البلاغات والتقريرات .

٣ — ثم هذا المعنى نفسه ، وهو كونها أولَ ما نزل من السور بعد الأمر بالصدع ، يُطوِّع لنا أن نقول : إن البيئة العربية كانت لا تزال فى أول معارضتها لفكرة البعث ، ولم تكن قد فلسفت هذه المعارضة بعد ، أو بعبارة أخرى لم يظهر فيهم من يقول بأن الحياة الدنيا ما هى إلا تفاعل وتوالد وتهالك — أو على الأقل : لم يشتهر — نعم كانت عندهم فكرة أن الدهر هو الذى يسرُّ ويحزن ، ويُبلى ويهرم ، ولكن لم يكن لها هذا الوضع الفلسفى المتعمِّق المتكلِّف .

والغاية من هذا أن نقول : إن السورة تحدثت عن قضية البعث فى دائرة المنهجين الأول والثالث دون المنهج الثانى ، لأن هذا هو الذى يناسب فكرة البيئة يومئذ ، ولم يكن يناسبها الحديث عن هذه القضية فى دائرة المنهج الثانى ، لأن المشتركين لم يكونوا ، أو لم يشتهر بينهم ، من وصل إلى درجة تعليل الإنكار بصورة علمية .

وقد يساعدنا على ذلك أن جميع الروايات التى عرضت لبيان ترتيب سور القرآن نزولا ، قد قررت أن سورة الأنعام سابقة فى النزول على كل من سورتى الجاثية والمؤمنون اللتين جاءتا بالفكرة الفلسفية المذكورة ، وإذن فمن حقنا أن نرجح مارجحنا من أن البيئة لم تكن قد عرفت هذه الفكرة فى هذا الزمن المبكر ، وإنما كانت معارضتها لعقيدة البعث ودار الجزاء بدائية تعتمد إما على الاستبعاد بحكم عدم الإلف ، وإما على الإنكار الساذج عنادا ولجاجا ومكابرة .

ولهذا كان نصيب سورة الأنعام من المناهج القرآنية الثلاثة فى علاج قضية البعث والدار الآخرة ، هو الحديث فى دائرة المنهجين الأول والثالث ، دون المنهج الثانى .

(٢) ولننظر بعد ذلك كيف تحدثت سورة الأنعام عن هذه القضية فى دائرة هذين المنهجين :

١ — بدأت السورة فى آياتها الأولى بذكر ما نسميه « الخلاصة العنوانية » للأغراض التى ترمى إليها ، كما هو شأن القرآن فى كثير من السور المطولات .

— وقبل أن نبين هذه الخلاصة العنوانية فى سورة الأنعام ، نعطى فكرة موجزة عما نريده بهذا التعبير :

ذلك أنه من يتدبر السور الطوال فى القرآن الكريم يجدْ لها هدفا أو أهدافا معينة مدروسة ، وُزعت فى آياتها توزيعا حكيما ، وقُدِّم لها ، أو عُقب عليها بما يؤيدها ويثبتها ، ويجدْ أن كثيرا منها قد صُدِّر بآيات هى فى المعنى كالعنوان لأغراضها وأهدافها .

ترى ذلك مثلا فى مطلع سورة البقرة التى عنيت بإيراد الأحكام التفصيلية فى كثير من شئون المجتمع ، وعنيت بمحاجة أهل الكتاب ، فإنها تُصَدر فى آياتها الأولى بأن ذلك الكتاب لا ريب فيه ، وبأنه هدى للمتقين ، وتصف هؤلاء المتقين الذين ينتفعون بهدى القرآن ، ثم تصف الكافرين والمنافقين ، فآياتها الأولى تمهيد عنوانى لما سيجىء فيها من هداية تفصيلية ، ومجادلة إنما ينتفع بها الذين يؤمنون دون الكافرين والمنافقين .

وسورة آل عمران تشعرنا بأنها ستتحدث عن العقيدة الصحيحة فى شأن الإله وما كان يزعمه النصارى فى قضية عيسى ، وذلك حين تبدأ بقوله تعالى « ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، نزل عليك الكتاب بالحق ، مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ، إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم » .

وهكذا ، وليس هذا موضع استقصاء هذا المعنى ، فحسبنا الآن أن نلفت إليه .

ونعود إلى سورة الأنعام وما بدأت به فى آياتها الأولى من « الخلاصة العنوانية » فنقول .

بدأت السورة بقوله تعالى « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا ، وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ، وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ، وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » .

فإذ طبقنا فكرة « الخلاصة العنوانية » على هذه الآيات الأربع التى بدأت بها السورة أمكننا أن نجد فيها تركيزا لأغراضها ومنهجها فى إصابة هذه الأغراض :

ففى قوله تعالى « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » تتركز الدعوة إلى العقيدة الأولى فى شأن الربوبية والألوهية ، فتقول : إن الله هو « خالق » السموات والأرض ، و « جاعل » الظلمات والنور ، ومَنْ كان هذا شأنه فهو الجدير بأن يُفْرد باعتقاد الألوهية ، وبالتوجه إليه فى العبادة ، ولكن النتيجة التى يرتبها الكافرون ترتيبا عمليا على هذا ؛ نتيجة بعيدة كل البعد عن منطق الأمر وواقعه ، ولذلك عُبِّر عن هذا البعد بحرف « ثم » فقيل « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » أى يسوونه بغيره بينما هو وحده الخالق والجاعل .

وبهذا تفيدنا الآية الأولى خلاصة عنوانية للحقيقة التى تريد السورة تقريرها ، وللمنهج الذى رسمته للدفاع عن هذه الحقيقة ، وهو الاستدلال بالربوبية - التى هى مصدر الخلق والجعل وكل ما يتصل بهما مَن نعم - على الألوهية التى يجب أن تُوحَّد بالقصد والتوجه إلى الله دون غيره ، لأن العبادة والخضوع شكرٌ للمعبود ، وإنما يستحق الشكرَ الكامل والخضوع الكامل مَن خلق كل شىء ، وأنعم بكل شىء ، وهو الله وحده .

ثم تأتى الآية الثانية بقضية البعث والنشأة الأخرى فتركزها دعوى ، وتشير إلى حجتها والمنهج الذى رسمته للدفاع عنها ، فتقول : إن الله هو الذى خلقكم

من طين - وفى هذا إشارة إلى النشأة الأولى ، ودليل على القدرة البالغة حيث أنشأ من الطين خلقا حيا يعيش ويفكر ويعمل - وتقول : إن الله قضى بعد ذلك أجلا : « ثم قضى أجلا » وكلمة « قضى » تطلق بأكثر من معنى ، وأظهرُها هنا معنى الحكم والتقدير ، فالعالم له أجل محدود لا يعدوه ، ولا يَستأخر عنه ولا يستقدم ، وتقول : « وأجل مسمّى عنده » والإشارة فى هذا إلى البعث ، لأن الأجل الأول هو مدة بقاء هذا العالم ، فيفهم من ذلك أن الأجل الثانى شىء آخر غير الأول ، وفى موضعين آخرين من القرآن الكريم يقول الله تعالى : « وعنده علم الساعة وإليه ترجعون » و « إن الله عنده علم الساعة » والتعبير بقوله « وأجل مسمى عنده » شبيه بهذا التعبير فى أن كلا منهما يفيد معنى التحديد ، هذا بلفظ « مسمَّى » والآخران بلفظ « عِلْم » ، وفى أن كلا منهما يعبر بالظرف : « عنده » ، والقرآن يعين بعضُه على تفسير بعض .

فقد تبين أن الآية قد ركزت الدعوى ، وأشارت إلى دليلها ، وإلى انفراد العلم الإلهى بأجلها .

وهذه هى الخلاصة العنوانية لقضية البعث والنشأة الأخرى الشبيهة بالنشأة الأولى ، فى أن كليهما إيجاد مسبوق بالعدم ، فمن قدر على إحداهما فهو أقدر من غير شك على الثانية ، ويأتى ختام هذه « الخلاصة العنوانية » بقوله تعالى : « ثم أنتم تمترون » . وهو كما جاء فى ختام الآية الأولى مقارنة تثير العجب ، فإن المقدمات لم تنتج نتيجتها السليمة عند أرباب العقول ، وإنما أنتجت نتيجة أخرى بعيدة كل البعد عن المنطق ، وهى الامتراء فى هذه الحقيقة والتردد فى قبولها ، وقد جاء التعبير فى ذلك أيضاً بلفظ « ثم » المؤْذِن بترتُّب شىء بعيد .

وتأتى بعد ذلك الآية الثالثة فتشير إلى سر الرسالات الإلهية بتقرير أنه تعالى هو إله العالم كله ، علويِّه وسفليِّه ، وأنه يعلم سر الناس وجهرهم وما يكسبون ، ومن هذا شأنه فلا بد أن يرجع إليه أمر التشريع .

ثم تأتى الآية الرابعة فتشير إلى أن لله آيات ، وأن هؤلاء ألفوا الإعراض

عن آياته ، وذلك تصريح أو تلميح واضح بأن هناك حقيقة ثابتة ، هى الرسالة والوحى :

٢ً — وتأخذ السورة بعد ذلك فى تقرير الدعوى على سبيل التأكيد فتقول : « ليجمعنكم إلى يوم القيمة لا ريب فيه » وعلى سبيل التلقين والإبلاغ الإنذارى « قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، من يُصرَفْ عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين »

ثم على سبيل عرض مَشاهد القيامة وأهوالها فتقول : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ، ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ، انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » . . . « حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ، وهم ينهون عنه وينأون عنه ، وإن يهلكون إلى أنفسهم وما يشعرون ، ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ، وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق ؟ قالوا بلى وربنا ، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ، وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، ولَلدَّارُ الآخرة خيرٌ للذين يتقون ، أفلا تعقلون » .

ثم تنبه إلى مظاهر القدرة فيما يراه الناس ، وفى النشأة الأولى فتقول :

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من

من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » .

وقد حرصنا على أن نثبت هذه الآيات ليرى فيها القارئ مثلا من المنهج الذى عالجت به سورة الأنعام هذه القضية ، ونكتفى بذلك مطمئنين إلى أنه سيجد فى باقى الآيات مُثُلا أخرى لهذا المنهج الذى ترسمته السورة ، والذى يتلخص فى التقرير ، والتحذير ، والتذكير .

فالتقرير هو الدعوى ، وذكر القضية .

والتحذير هو التخويف بعرض أهوال القيامة .

والتذكير ببيان القدرة فى النشأة الأولى ، وفيما يراه الناس من مظاهرها الواقعية فى فَلْق الحب والنَّوى، وفى إخراج الحى من الميت ، والميت من الحى ، وفى توفى الناس بالليل وبعثهم بالنهار إلى أجل مسمى ، وفى غير ذلك من المظاهر .

* * *

وبذلك اتضح لنا نصيب السورة من المنهج القرآنى فى تركيز قضية البعث والجزاء ، ولمَ قُصِرت على هذا النصيب .

٥

إبراهيم الخليل عليه السلام ، بمناسبة ذكر طرف من قصته فى سورة «الأنعام»:

(١) إبراهيم أبو الأنبياء — صلته بالإسلام ورسول الإسلام — بعض وجوه الشبه بينه وبين رسولنا الكريم

(ب) منهجه فى الاحتجاج : محاجته لنمرود— سر تطلعه إلى معرفة الحقيقة فى إحياء الموتى عن طريق الرؤية الحسية — تدرجه بقومه إلى إبطال عقيدتهم بتأليه الكواكب وبيان أن هذا التدرج طريقة تربوية صالحة — .

(ج) إقدامه وقوة شخصيته : قصته مع أبيه — تحطيمه الأصنام— قصة الفداء .

عرفنا مما سبق أن سورة «الأنعام» سارت على منهج معين فى الاحتجاج لعقيدة «الألوهية» ، وهذا المنهج هو توجيه الناس إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، فإنهم إذا نظروا فى ذلك متأملين ؛ لم يَسَعْهم إلا الإيمان الكامل بأن لهذا الكون خالقا قديرا ، مدبرا حكيما ، وأن هذا الخالق المدبر المصرّف هو الجدير بأن يعبدوه وحده لايشركون به شيئاً .

وقد أشرنا فيما كتبنا إلى أن السورة قد أيدت هذا المنهج المفضى إلى الإيمان الحق بما قصّتْه عن منهج إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، حين تدرج بقومه إلى أبطال رأيهم وميراثهم الذى ورثوه عن آبائهم فى تأليه غير الله ، وفى ذلك جاءت الآيات الكريمة من قوله تعالى «وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين ، وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين» إلى قوله جل شأنه : «وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات مَن نشاء ، إن ربك حكيم عليم» .

ولما كانت شخصية إبراهيم عليه السلام ذات صلة وثيقة بالإسلام ورسول الإسلام ، وكان منهجه فى الاحتجاج ومقاومة الباطل منهجا قويا ، حتى لفتت هذه السورة الأنظار إليه ، وحتى ذكر الله تعالى فى شأنه أن الحجة إنما هى حجته تعالى قد أتاها إبراهيم على قومه ، وأشار إلى أنه رفعه درجات ، بمشيئته وعلمه وحكمته - لمّا كان أمرُ إبراهيم كذلك ، فإننا نرى أن نعقد هذا الفصل لدراسة بعض الجوانب فى هذه الشخصية الفذة :

* * *

(١) إبراهيم هو الجد الأعلى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما هو الجد الأعلى لكثير من الأنبياء والرسل غيره ، وفى هذا يقول الله عز وجل فى هذه السورة :

« ووهبنا له إسحق ويعقوب كُلاًّ هَدَيْنا ، ونوحاً هدينا من قبل ، ومن ذريته داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهرونَ ، وكذلك نجزى المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصالحين ، وإسماعيل واليَسَعَ ويونسَ ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين ، ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم : واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم » .

الضمير فى قوله تعالى « ومن ذريته » لإبراهيم عند أكثر العلماء لا لنوح ، ولوطٌ وإن كان ابنَ أخى إبراهيم إلا أنه ذُكِر فى الذرية تغليبا .

ومحمدٌ صلى الله عليه وسلم يمتاز فى هذه النسبة بأمر يلفت النظر ، هيأه الله له ، واختصه به من بين هؤلاء الأنبياء أجمعين : ذلك أن إبراهيم كان له ولدان : إسماعيل منْ هَاجَر ثم إسحاقُ من سارة ، فأما إسحاق فقد كثرت ذريته من الأنبياء ، فكلُّ مَنْ نُسب إلى إبراهيم فى هذه الآيات، فهو من ذرية إسحاق ، وأما إسماعيل فهو أبو العرب على اختلاف قبائلهم ، وليس له ذرية من الأنبياء إلا محمد خاتمهم - عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام - فكأنَّ الشجرةَ الإبراهيميةَ قد أنبتت فرعين عظيمين وَازَنَ أحدُهما الآخرَ جلالةً وشرفاً وكانَ محمد وحدَه وِزَانَ هذه السلالة الطاهرة كلِّها من الأنبياء والمرسلين .

وإبراهيم عليه السلام هو بانى البيت الحرام ، ورافع قواعده بأمر الله ، ومطهره للطائفين والعاكفين والركع السجود . وواضع المناسك والمشاعر ، وهو الذى دعا لهذا البلد الحرام أن يجعله الله آمناً ، تهوى إليه أفئدة من الناس ، وتُجبَى إليه ثمراتُ كل شىء ، كما دعا ربه أن يبعث فى العرب رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .

فهذه صلة إبراهيم بمحمد - عليهما الصلاة والسلام - نسبا ووطنا وقوما ، وهى ناحية بارزة - من غير شك - فى حياة هذين الرسولين الكريمين .

(٢) وإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كان منذ صغره مائلا عن الشرك ، متنزها عن أرْجاسه ، فلم يُشرك بالله قط على كثرة ما كان حوله من بواعث الشرك : فأبوه مشرك ، وقومه مشركون ، وللأصنام عندهم منزلتها وحرمتها ومعابدها ، ومع ذلك لم يمل قبل بعثته طرفة عين إلى جانب « الشرك ، ولم يعبد إلا الله ، ولم يخشع إلا لله .

وقد حدثنا القرآن الكريم أنه لما جادل أباه وقومه فيما يعبدون من دون الله استصغروه وقالوا له « أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين » ولما حطم الأصنام « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » كل هذا يدل على أنه أعرض عن الشرك ، وأخلص التوحيد لله ، وهو بعدُ فى سنّ مبكرة لم يعْدُ طور الفتوة والشباب ، ولهذا يقول الله عز وجل « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين » ويقول : « إن إبراهيم كان أمةً قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين » .

وكذلك كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد تولاه ربه برعايته منذ طفولته ، وبرّأه مما كان يسود قومه وعشيرته الأقربين من الشرك والفحش والشعر واللهو وسائر أنواع المجون ، وأدبه فأحسن تأديبه ، حتى كان يعرف فى قومه « بالصادق الأمين » ، ولم يسجد لصنم قط ، ولا استقسم بزَلم قط ، ولا استطلع كاهنا ، ولا استعان بعرّاف ، وقد حُبِّبتْ إليه العزلة والبعد عن مظاهر الشرك والوثنية وهو العربى الذى نشأ فوجد قومه زعماء الشرك .

فهذه ناحية أخرى فى تحقيق الصلة بين الرسولين الكريمين ، هى اتفاقهما أو تشابههما فى النشأة .

٣ ــ وإبراهيم كانت له طريقة عقلية بارعة فى محاجة الخصوم ، ومقارعة المبطلين بالدليل تلو الدليل ، على نحوٍ من الاستدراج المنطقى ، أو ما يسمونه فى البحث والمناظرة بإرخاء العنان للخصم حتى يفاجأ بما ليس فى حسابه فيرتبك ويتلعثم ويُضطر إلى التسليم .

وأمثلة هذا فيما حكاه الله فى القرآن الكريم عن إبراهيم كثيرة ، حسبنا أن نعرض لبعض منها بالتفصيل :

١ً ــ « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن أتاه اللهُ الملك » :

محاجة دارت بين إبراهيم وجبار عنيد غره ملكه حتى نازع ربه الذى يملك ناصيته فادعى الربوبية ، وقد ناقشه خليلُ الله مناقشة أبطل فيها إفكه وسفسطته ، وبين كثرة جهله ، وضعف عقله ، وألزمه الحجة حتى انقطع وتحير .

« إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت » لم يقل له ربى يحيى ويميت ، لأنه لايريد أن يصف الله بالإحياء والإماتة فحسب، ولكنه يريد أن يستدل بانفراده بالإحياء والإماتة وما يرى الناس من المشاهدات فى الكون على أنه هو وحده الصانع ، فقال : ربى هو الذى يفعل ذلك ، أى : أنا لا أعبد ولا أدين بالربوبية إلا لمن بيده الإحياء والإماتة والتصرف فى الخلق بما يشاء ، لأنه هو الذى يستحق عبادتى وخضوعى ، أما من كان مثلى فى خضوعه لهذا الرب وما يصنعه به ؛ فليس جديرا بأن يكون ربا لى ، فماذا قال له الكافر ؟ « قال أنا أحيى وأميت » لم يستطع أن يقول « أنا الذى أحيى وأميت » وإلا لكان مكابرا صريح العناد ، ولكنه تحايل بهذا اللفظ ليخدع السامعين ، ولا ينكشف أمام الحاضرين ، فأسند لنفسه نوعا من الأعمال سماه إحياء وإماتة ، على نحو من الحيلة والسفسطة ، ـ قالوا : كان يؤتى بالرجلين قد تحتم قتلهما ، فإذا أمر بقتل أحدهما ، وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات ذاك ـ فكان إبراهيم يستطيع أن يزيف له هذا الرد ، ويبين

له أنه فى واد غير واديه ، ولكنه لم يفعل فأعرض عن هذه الحجة ، لأنه يعلم أن صرف الوقت فى ردها والنقاش فيها غير لازم ، وانتقل إلى حجة أخرى « قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبُهِتَ الذى كفر » لأنه لم يستطع مع هذه الحجة الساطعة أن يتبجح ويتلاعب بالألفاظ والمعانى كما فعل من قبل « والله لايهدى القوم الظالمين » .

٢ — وإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كان قوياً فى معالجة قلبه ، لكيلا يطغى على عقله ، وكان لايعبأ بأى اعتبار من الاعتبارات التى تصرف الضعفاء عن النظر الصحيح ، أو تلويهم عن تعرُّف الحق ، أو تَفُتُّ فى عضدهم ، حتى يَظلَعوا إليه ظَلعاً كما يغمز فى مشْيِه البعير .

لم تزل قضية أحياء الله تعالى للموتى أمراً عجيباً حتى مع الإيمان بقدرة الله وَسَبْق إنشائه لكل مافى الوجود ، ومن فى الوجود ، ولم يزل أهل الشكوك والعابدون للطبيعة والمادة يثيرون بها على الناس شُبَهاً ويتوصلون بها إلى إنكار الحياة الأخرى وما فيها من جزاء على الخير بالخير ، وعلى الشر بالشر .

وقدأراد إبراهيم مع إيمانه بالله وثقته بقدرته أن يرى من أمرها رأى العين، وهو يمثل فى هذا الطلب كل متطلع إلى معرفة الحق ، حريص على اجتلائه ، فطلب من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى « وإذ قال إبراهيم ربى أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى . قال فخذ أربعة من الطير فصُرْهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم » .

ومن نافلة القول أن نذكر أن إبراهيم لم يكن متردداً فى الإيمان بقدرة الله إيمانا طبعه الله عليه ، ويسره له ، وصاغه على نهجه من لدن كان فتى ينازع قومه على الأصنام حتى يحطمها ، ويدعو أباه إلى التوحيد ، ويجادل المشركين على الحق المبين ، ولكنه طلب صورة أخرى من صور اليقين بعد الإيمان بالقدرة ، وتطلعَ إلى ما يتطلع إليه المرء الوسط الذى ليس نبيا ولا مؤيداً بوحى ،

فسأل : « كيف يحيى » ، ولم يسأل : « هل يحيى » ، لأن « كيف يحيى » إذا تجلت كانت أكبر دليل على صدق « يحيى » ، وكانت لكل من يأتى بعده ومن يفكر بمثل عقله نبراساً مضيئاً ، وآية واضحة ، فهو فيهما متحدث باسم العقل ، متلق للجواب باسم العقل ، متمتع بالطمأنينة والرضى باسم العقل ، فكأنه فى ذلك نائبٌ عن الإنسانية المفكرة كلها فى أهم قضية من قضايا العقل .

ليس كلُّ الناس يجرؤ على هذا الطلب ، وليس كلُّ الناس يرضى بأن يذاع عنه أنه يتطلب علما محسوساً ، وشاهدا ملموساً ، على قدرة الله الذى آمن به ، ولكن إبراهيم يجرؤ ويطلب ويدعو ربه ليصل إلى الاطمئنان ، ويسد على كل من تحدثه نفسه بالشك منافذَ الشيطان .

فذلك مَثَل واضح من أمثلة اتجاهه العملى فيما يعتقد .

٣ — ومَثَلٌ آخر — هو الذى حدثتنا به سورةُ « الأنعام » يتجلى لنا فى صنيعه حين تدرج بقومه إلى أبطال رأيهم وميراثهم الذى ورثوه عن آبائهم فى تأليه الكواكب من شمس أو قمر أو سواهما ، وذلك قوله تعالى :

وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جَنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هـذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون » .

هذا الأسلوب جدير بكل إعجاب ، كما هو جدير بالتأمل والنظر .

وفى بعض ما يقوله الناس تفسيرا للقرآن الكريم ، أو بياناً لقصصه : أن إبراهيم كان أول الأمر متحيرا لم يستقر له فى أمر الألوهية قرار ، وأنه تنقل من تأليه كوكب إلى تأليه آخر حتى اهتدى إلى أن هذه الكواكب كلها لا تصلح آلهة ، وأن الله هو الإله الحق ، ويؤيدون ذلك بأن الله قدّم بين يدى ذلك أنه يُرِى إبراهيمَ ملكوت السموات والأرض ، ليكون من الموقنين ، أى أنه

تعالى يريد أن يكون أيمانُ خليله إيمانَ اليقين ، لا إيمانَ التلقين .

وليس ذلك بصحيح ، فما كان إبراهيم بمتحير ولا مضطرب فى أمر الألوهية ، ولكنه واثق مطمئن القلب ثابت اليقين ، بَيْد أنه لم يشأ أن يقول لقومه باللسان والشفتين : إن ما أنتم عليه هو الباطل ، ويكتفى بهذا القول، بل حاكمهم إلى العمل وملابسة الفعل بعد أن حاجّهم وناقشهم بالمنطق والعقل ، ليبين لهم عملياً ضلالهم وما هم عليه من الجهل والتخبط ، فقال : تعالَوْا ننظرْ هذه الآلهة ، فلعلى أنا المخطىء المتجنى على الحق ، فلفت بذلك أنظارهم ، وسدّ منفذا مما عسى أن يقوله المفترون من أن إيمانه تلقينى كإيمانهم بما يؤمنون ، وانتهى الأمر به إلى أن زيَّف لهم هذه الآلهة المزعومة واحدا بعد واحد ، لأنه لفت أنظارهم إلى ما يلابسها مما ينافى الربوبية ، فهى تغيب وتحضر ، وتخفى وتظهر ، دون أن تملك لما أجريت عليه من سنةٍ تبديلا أو تحويلا ، ودون أن تهدى متبعها إلى الخير والرشاد .

وكيف يكون إبراهيم متحيراً وهو يرمز لقومه فى أثناء تظاهره باعتقاد القمر « لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين » فقد تضمن هذا القول البارع قاعدة ، هى أن الإله الذى يُعتقَد هو الذى يَهدِى ، وتضمن أن هناك قوما ضالين منحرفين عن جادة الحق وسواء السبيل ، وفيه تلميح إليهم ، وظاهره مع هذا كله يحتمل أن يكون المراد به القمر ، وأن هذا الرب لا يهدى . فلا يكون جديراً بالألوهية .

وقد صوّرت لنا هذه الآيات الكريمة تلك الصورة الرائعة تصويراً بارعا ، فبدأت بذكر حال إبراهيم وكأنه يشدّ مِئزره ، ويعقد خنصره ، ويتطلع إلى السماء باحثا منقبا ، بل إلى الوجود كله ، حتى يعثر على هذا النجم العجيب اللامع المتلألئ ، فيراه فى عالم غير عالمه ، وعلى حالة غير حالته ، فيتوجه إليه بالإيمان والإذعان ، ويقول : هذا ربى ! حتى إذا غاب وأفل ؛ بدت عليه دلائل التحسر والحيرة والفجيعة ، وعاد يبحث وينقب ، فتوجه إلى القمر تارة ،

وإلى الشمس تارة أخرى ، وهو فى كل مرة يُفَـْجأ فى الظاهر بما لم يكن يعلم ، ويفاجىءُ فى الحقيقة بما يعلم ، ثم رفض ذلك كله ، وواجه بالحقيقة قومه قائلا : « يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .

فهذه أيضا إحدى « عمليات » إبراهيم وهو بصدد إيصال الحقيقة إلى قومه ، وتكوين معتقد سليم فى نفوسهم ، فهل ترى يستطيع كثير من الناس أن يقتحموا فى سبيل الإيمان حصنا من حصون الكفر والضلال فى صورة المذعنين المؤمنين الراضخين لما يرضخ إليه أصحابه ، ليخرجوا منه بعد قليل ، وقد قوضوا بنيانه ، وصدّعوا أركانه ؟

* * *

(٣) وأما إقدام الخليل عليه الصلاة والسلام على ما يعتقد أنه الصواب ، وجرأته على تنفيذه والعمل عليه مهما صادفه فى ذلك من صعاب ، فقد تجلى ذلك فى حياته كلها :

١ — لم يجامل إبراهيم فى الحق أباه ، ولم يجامل ابنه ، حتى يجامل أحداً من الناس: انظر إلى موقفه الرائع مع أبيه وهو يوجه إليه الدعوة إلى الإيمان حارة قوية فى أسلوب يهز القلوب ، ويحرك العواطف ، فيقول :

« يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟ يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عَصِيّاً ، يا أبت إنى أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن فتكونَ للشيطان وليا » .

وجّه إبراهيم نداءه إلى أبيه على هذا النحو ، وبدأه على عادته فى الخطاب والحجاج بدليل عقلى لم يصغه فى مقدمات علمية ترهق السامع ، وتشغل فؤاده ، ولكنه صاغه فى لفظ سهل واضح كوضوح معناه : لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟ إن العقل لا يدين بالعبادة ، ولا يعرف الخضوع القلبى إلا لمن اتصف بالعلم والقدرة ، فإذا عبد مالا يسمع ولا يبصر ، فقد عبد جاهلا

ممعنا فى الجهل ، منقطعا عن أسباب العلم والإدراك ؛ وإذا عبد ما لا يغنى عنه شيئا وليس له فى أمره تصرف ، وليس له قدرة على إصابته بخير أو شر ، فقد عبد عاجزا ، وألزم نفسه سخافة تجر إلى سخافات ، وضلالة تدعو إلى ضلالات ؛ ولذلك يقول إبراهيم فى موضع آخر « أتتخذ أصناما آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضـــلال مبين » ويقول لقومه « هل يسمعونـكم إذ تدعون أو ينفعونـكم أو يضرون » . ويوازن لهم بين الله القادر الفاعل المتصرف وبين ما يعبدون من هذه التماثيل : « أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدوّ لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » . ذلك هو الإله الحق الجدير بأن يعبد ويدعى ، لا هذه الأحجار التى ليست جـــديرة حتى بأن توصف بالجهل .

فلما زلزل إبراهيم على أبيه ، وجابهه بهذه الحقيقة ، طمع فى أن يكون قلبه الغافل قد تنبه ، ووعيه النائم قد استيقظ ، وأصبح فى حاجة إلى من يهديه السبيل ، ويأخذ بيده إلى الصراط المستقيم ، فقال له : يا أبت هأنذا بين يديك « إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا » .

وهى جرأة من إبراهيم وقوة قلب ، لا يدركها إلا من عرف أن الآباء يوم كانت تقاليد الخلق الـكريم قائمة بين الناس ، كانوا للأبناء سادة وقادة ، وكانوا موضع الإجلال والتقديس والمهابة ، وموضع الاقتفاء والاتباع فى كل شىء ، وأن ذلك قد أفضى بأهل الجاهلية إلى الـكفر تقليدا واتباعا : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » ، فلا شك أن ابنا يُسمع أباه ما أسمعه إبراهيم لأبيه ، ويطلب منه أن يقلب ما ألف منه ، وما ألف جميع الآباء من جميع الأبناء ، فيتخذه هو قدوة وإماما ، ويتبعه لينقذه من ضلاله وتخبطه ، لا شك أن ابنا يفعل ذلك فى وجه أبيه لجرىء ذو قوة وإقدام .

ولا يكتفى إبراهيم بذلك ، ولـكنه يرتب عليه فى وجه أبيه أيضا أنه خالف

الحق بعد ما تبين ، فليس وراء الحق إلا الضلال ، وإن لم يعبد الرحمن فقد عبد الشيطان ، ومن عبد الشيطان فقد ابتعد معه عن سبيل الخير ، وتعرض لعذاب من الله يمسه فيرديه .

بكل ذلك واجه إبراهيم أباه ، فلما لم يجد منه إلى دعوة الحق استماعا ، بل وجد منه إصرار واستكبارا ، أعلنه وقومه فى غير تردد أنه معتزلهم وما يدعون من دون الله ، داع ربه ، راج ألا يكون بهذا الدعاء شقيا ؛ وهكذا كان إبراهيم عمليا فى دعوته ، عمليا فى هجرته وعزلته .

٢ — ولم يكن هذا آخر عهده بمجاهدة الباطل ، ومجالدة الشرك حتى يقال : فتى قد يئس فخارت قواه وركن إلى الفرار ، ولكنه خطا فى الله والحق خطوة عملية أخرى ماأعظمها وما أروعها ! إنه سن للأبطال خطة الإقدام وتحدى الباطل فى أمنع صروحه ، وأعز مواطنه ؛ وذلك ما يقصه الله علينا فى سورة الأنبياء إذ يقول : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين. وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ . قال بل فعلهم كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نُكسوا على رؤوسهم لقدعلمتَ ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ! أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون . قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين » .

ألا إن هذه لقصة البطولة والفداء التى لا تعرف البشرية مثلها إلا من هؤلاء

الذين اجتباهم الله وهداهم وفضلهم على العالمين ؛ قصة في كل طرف من أطرافها عبرة ، وفي كل فصل من فصولها مفخرة خالدة : فيها العلم والرشد ، فيها الجراءة والإقدام ، فيها الحجة والبرهان ، فيها إنذار الباطل الذى بغى واستكبر ، فيها ثقة المحق بنفسه وإن كان قليلا ضعيفا ، واضطراب المبطل وحيرته وإن كان كثيرا قويا ؛ فيها تحرر الفكر من سلطان الأوهام ، فيها غزو الشرك فى عقر داره ، فيها تحدى الظلمة الجهلة العتاة ، والتعرض لغضبهم فى سبيل الله ، فيها اتهام ، فيها تحقيق ، فيها دفاع ، فيها سخرية المتهم بمن يحاكمونه ، فيها استخذاء الجهل أمام العلم ، والباطل أمام الحق ، ثم فيها عنجهية هذا وإصرار ذاك ، ثم فيها ثبات الداعى وعدم تزلزله ، وانتهازه كل فرصة تتاح لتوكيد دعوته ، وتأييد فكرته ، ثم فيها خاتمة النصر للمؤمنين برعاية الله وعنايته ولو كره الكافرون ! .

فأى ثبات هذا وأى عزم ؟ !

٣ — وإذا كان الله عز وجل قد قص علينا هذه القصة الرائعة التى تصور لنا جهاد ابراهيم للباطل فى صورته العملية . فقد قص علينا صورة أخرى يتمثل فيها جانب آخر من البطولة فى جهاد النفس والعاطفة لا يستطيعها إلا من ربط الله على قلوبهم ، وأراهم منه ما جعلهم لا يرون سواه وأذاقهم من لذة الصلة به ما أنساهم كل لذة وراءها .

وقد جاءت هذه القصة الثانية عقب تلك القصة الأولى فى سورة الصافات إذ يقول جل شأنه بعد ذكر إنجاء خليله من جحيم الظالمين :

« فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم » .

من ذا الذى يسمع هذا النبأ العظيم ولا يمتلىء قلبه إيماناً بهذا النبى الكريم ؟ أب بار شفيق يعتبر أنه مأمور من الله بذبح أعز الناس إليه ، وأقربهم إلى قلبه ؛

بذبح ابنه وفلذة كبده ، وهو ابن ليس كسائر الأبناء ؛ ابن قد بلغ معه السعى ، وكمله الله بالعقل والحلم ، وزينه بالطاعة والامتثال : فلا يتردد ولا يتقاعس عن إنفاذ أمر ربه ، بل يصارح ابنه فى وجهه بما هو مأمور به ، ويطلعه على اعتزامه المضى فى تحقيقه ، فيتلقى الابن هذا الأمر الإلهى بالطاعة والخضوع والصبر ، ويقول بلسانه لأبيه « يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » وحينئذ يسلم الأب والابن أمرهما إلى الله ويشرعان فى التنفيذ ؛ هذا بصبره وامتثاله ، وذاك بحبله وسكينه ، فإذا الأرض والسماء يشهدان أعظم فداء وأعظم بلاء ؛ يشهدان شيخا كبيرا يصرع للجبين غلاما صغيرا ، ويشرع على عنقه أداته صابرا محتسبا ، مؤمنا ممتثلا ؛ فإذا اهتزت الأرض والسماء لذلك فقد اهتزتا ـ ورب العرش ـ لعظيم من الأمر جلل !

هذا هو خليل الله ابراهيم فى ناحيته العملية ، وإن له لنواحى أخرى جدير بالذين يدرسون النفوس والأخلاق والعقول أن يدرسوها ، ليعلموا أى نبى هذا الذى يصفه الله فى موضع واحد ـ وهو خالقه وبارئه ـ بعشر صفات جلائل تكفى كل واحدة منهن لو انفردت بإثبات العظمة والسمو ؛ إذ يقول جل جلاله:

«إن إبراهيم كان أمة ، قانتا لله ، حنيفا ، ولم يك من المشركين، شاكرا لأنعمه، اجتباه ، وهداه الى صراط مستقيم ، وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين ».

٦

قضية التشريع (التحليل والتحرم) : منهج السورة فى هذه القضية .

(١) لاحكم إلا لله ـ الخلاصة العنوانية لسورة الأنعام ترشد إلى هذا المبدأ ـ مجادلة المشركين بأسلوب « السبر والتقسيم » ـ تزيين الشركاء قتل الأولاد ـ لون من الإيهام شبيه به فى عصرنا ـ شبهة قديمة جديدة (لو شاء الله مافعلنا) ـ أساس الرد عليها ـ

(٢) الوصايا العشر ـ ارتباط موضوعها العام بقضية التحليل والتحريم ـ آيات الوصايا العشر ـ مجتمع الجاهلية وما كان يسوده من اضطراب وتناقض ـ هذه الوصايا إصلاح لهذا المجتمع ولكل مجتمع ـ تحليل لهذه الوصايا وبيان انقسامها ثلاثة أقسام : قسم تناشد فيه العقول (لعلكم تعقلون) وقسم علاجه التذكير (لعلكم تذكرون) وقسم أساسه التقوى (لعلكم تتقون) .

قضية التشريع ـ أو التحريم والتحليل ـ مرتبطة تمام الارتباط فى حكم العقل بقضية التوحيد . ذلك بأن خلاصة قضية التوحيد أنه ليس فى الوجود مَنْ يُعبَد بحق إلا الله ، والعبادة قوامها الخضوع للمعبود وتقبل حكمه ، والتشريع سلطة وإلزام وإخضاع لحكم المشرّع ، فلا يكون إلا لمن يجب فى حكم العقل انفراده بأن يُعبَد ويُخضَع له .

وقد يُعرض الأمرُ بأسلوب آخر فيقال :

الأصل أن الإنسان حر فى كل ما يفعله أو يتركه من الأعمال ، وفى كل ما يتناوله أو يرفضه من الأشياء ، وذلك بحكم خلقه فى الكون سيداً لنفسه متمكناً مسلطاً .

وإذن فكل توجيه يوجه إليه فى فعل أو ترك أو إذن أو منع ؛ إنما هو قيد على هذه الحرية لا يُقبل منطقياً إلا من سلطة لها حق الحكم والإلزام ، وتلك السلطة إنما هى « الله » لا غيره ، لأنه هو الذى خلق ومكّن وجعل ، فهو الذى يملك ويحكم : « إن الحكم إلا لله ، أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . »

ولهذا اهتمت سورة «الأنعام» بهذا الجانب من صنيع المشركين، وأخذت عليهم أنهم ما يتبعون فيه إلا الأوهام والظنون، وأنهم يسيرون وراء الشركاء فيحلون مالم يحله الله، ويحرمون مالم يحرمه الله، وأنهم فى كثير من الأحيان يجادلون أهل الحق، متبعين وحى الشياطين، لا وحى الإله العليم الحكيم، ليتظاهروا بأنهم على علم، وبأن لهم منطقاً وحجة، والله يشهد إنهم لكاذبون.

* * *

وخلاصة منهج السورة فى الرد على هذا الجانب من الشرك، وهو «الشرك العملى» ترجع إلى نقطتين:

إحداهما: إنكار أن يكون لأحد غير الله حق فى الحكم والتشريع، وانتقاد مسلكهم فى ذلك، وتقرير ضابط عام يعرف به ما حرم الله وما أحل من الأشياء

والأخرى: بيان شامل الأسس التى يجب أن يقوم عليها المجتمع كما يريد الإسلام أن يقيمه، وهى الأسس المعروفة «بالوصايا العشر»

ونحن نعرض لكل منهما بشىء من البيان، وبالله التوفيق.

* * *

١ — لا حكم إلا لله

١ — فى افتتاح السورة، أو فيما سميناه «بالخلاصة العنوانية» إشارة واضحة إلى هذا المبدأ الأساسى وهو أنه «لا حكم إلا لله» بالتنبيه إلى المظهرين اللذين يدور العالم أجمع فى دائرتيهما، ولا ينفك شىء منه عنهما، وهما مظهر «الخلق» ومظهر «الجعل»: «الحمد لله الذى خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور».

فكما أن الله تعالى هو الخالق المبدع، فكذلك هو المصرف المدبر، ولا يمكن أن تصوّر «الألوهية» خلقا وإنشاء فقط، إنما الكمال المطلق الذى يستحق «الحمد» المطلق المذكور فى قوله «الحمد لله» هو فى أن يكون «الإله» مدبرا ومصرفا كما هو منشىء ومبدع.

ومن أبرز مظاهر التصريف والتدبير: الحكم والتشريع ، لأنه هو منهاج المالك للمملوكين ، والخالق للمخلوقين .

وفى الآية الثالثة إشارة إلى هذا المبدأ أيضا من جهة أنه تعالى هو الإله الحق فى السموات والأرض الذى يعلم السر والجهر وما تكسب كل نفس ، ومعنى هذا أنه استوفى ما به يكون « الحكم والتشريع » لأن الحكم والتشريع لا يتمان لمن يكون منازَعا فى الملك ، ولا لمن يكون ناقصا فى العلم والإحاطة بشئون من يملكهم ويشرع لهم ، والله تعالى هو المالك الذى لا ينازع ، والعالِمُ الذى لا يخفى عليه شىء ، فيجب أن يكون هو الحاكم المشرع .

والآية الرابعة من آيات « الخلاصة العنوانية » تشير إلى هذا المبدأ من حيث إن لله تعالى آيات ، وأنه يبعث بآياته إلى الناس ، وأن هؤلاء قد ألفوا الإعراض عن آيات الله ، ورفض الانتفاع بها « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » .

٢ — فإذا انتقلنا إلى آيات السورة بعد هذه الخلاصة العنوانية ، نجد كثيرا منها يترادف على بيان هذا المبدأ وتقريره ، مع الحقائق الأساسية التى تدعو السورة إلى الإيمان بها .

ومن أهم ما جاء فى ذلك :

١ً — انتقاد مسلكهم فى الحرث والأنعام ، وذلك ما جاء فى قوله تعالى : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون » — وما بعدها من الآيات إلى آخر الآية ١٥٠ — .

وقد جاء فى هذا الصدد رد عليهم بأسلوب له مع سهولته طابع المنطق الاستقرائى التتبعى . وذلك هو قوله تعالى :

« ثمانية أزواج : من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، قل آ الذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ نبئونى بعلم إن كنتم صادقين ، ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آ الذكرين حرم أم الأنثيين أمما اشتملت عليه

أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين » .

وتقرير هذا بالأسلوب المنطقى : أن تطبق قاعدة « السّبر والتقسيم » فيقال :

إن الله تعالى خلق من كل صنف من المذكورات نوعين : ذكراً وأنثى ، وأنتم أيها المشركون حرمتم بعض هذه الأنعام ، فلا يخلو الأمر فى هذا التحريم من :

(١) أن يكون تحريماً مُعَللاً بعلة .

(٢) أو أن يكون تحريماً تعبدياً متلقى من الله تعالى .

ولاجائز أن يكون تحريماً معللا ، لأن العلة إن كانت هى « الذكورة » فأنتم أبحتم بعض الذكور وحرمتم بعضاً ، فلم تجعلوا الأمر فى الذكورة مطرداً ، وإن كانت العلة هى « الأنوثة » فكذلك حيث حرمتم بعض الإناث وأحللتم بعضاً ، فلم تطردوا العلة ، ومثل هذا يقال إذا جُعلت العلة هى اشتمالَ الرحم من الأنثى على النوعين ، لأنها حينئذ تقضى أن يكون الكل حراماً فلماذا أحلوا بعضه .

وهذا كله يؤخذ من قوله تعالى « قل آالذكرين حرم أم الأنثيين أم مااشتملت عليه أرحام الأنثيين » .

فبطل إذن أن يكون التحريم معللا .

ولاجائز أن يدعى أن التحريم تعبدى لا يُدْرَى له علة ، أى مأخوذ عن الله ، لأن الأخذ عن الله إما بشهادة توصيته بذلك وسماع حكمه به ، وقد أنكر هذا عليهم بقوله « أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا » ، وإما أن يكون برسول أبلغهم ذلك ، وهم لم يأتهم رسول بذلك ، وفى هذا يقول جل شأنه متحديا لهم « نبئونى بعلم إن كنتم صادقين » « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم » .

وإذن فما قالوه من التحريم إنما هو افتراء وإضلال .

وقد جاء عقب ذلك فى الآية التالية بيان للمحرمات من الطعام فى كل من شريعة محمد ، وشريعة موسى عليهما الصلاة والسلام ، تسجيلا لأنهم فى تحريمهم مبطلون غير صادرين عن الله فى شريعة شرعها :

فأما بيان ذلك فى شريعة الإسلام ، فذلك قوله تعالى « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير ـ فإنه رجس ـ أو فسقا أهلّ لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » .

وأما بيان ماحرم على اليهود فى الشريعة الموسوية ؛ فذلك قوله تعالى « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ماحملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ، فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » .

وبذلك استوفت السورة هذا الدليل من جميع جهاته : فبينت أنهم لا يستندون إلى علة معقولة فى تحريم ماحرموا ، وأنهم لا يستندون إلى حكم إلهى لافى الشريعة الحالية ، ولا فى الشريعة السابقة ، فإن المحرمات فى الشريعة الحالية هى كذا وكذا ، وفى الشريعة السابقة هى كذا وكذا ، فلم يبق إلا أنهم مفترون كاذبون ، وأن الصدق والحق فيما ذكره الله ، فإن كذبوك بعد هذا البيان المنطقى الشافى فلا تعبأ بهم ، وقل لهم محذرا : إن الله تعالى مع واسع رحمته لذو بأس شديد لا يرد عن القوم المجرمين .

٢ ـ كما انتقدت السورة مسلكهم فى قتل أولادهم سفها بغير علم مجاراة لما زينه لهم الشركاء من أن هذا أمر لا مانع منه ، وأنه حلال لهم ، لأنهم يجب أن يتقوا الفقر الواقع أو المتوقع بسبب الأولاد ، وهذا هو المشار إليه بقوله تعالى « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق » « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » فهم زينوا لهم قتل أولادهم بحجة أن الأولاد عيلة أو مجلبة للفقر ، وكذلك زينوا لهم قتل البنات ووأدهن اتقاءً للعار ، وخشية أن يرتكبن الفاحشة أو يتزوجن بأزواج دون آبائهم فى الشرف ، فتلحقهم الخسة والذلة .

وهذا اللون من التزيين وإعطاء الأشياء صورة غير صورتها فى الواقع ، يلجأ إليه فى كل زمان ومكان مَنْ يريدون أن يهوّنوا أحكام الله ، ويجرّئوا

الناس على اقتحام حماها ، باسم ابتغاء المصلحة ، أو اتقاء المفسدة ، وهم يعلمون أو يجب أن يعلموا أن المصالح والمفاسد التي يعتبرها المشرع ويرتب عليها ؛ غير ما يتوهمونه ، أو يوهمون به ، من مصالح يزعمونها ويزينونها للناس كما زين للمشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليُردُوهم وليلبسوا عليهم دينهم .

وبهذا وذاك استوفت السورة نقدهم في أهم ما كانوا يفعلون في جانب التحريم ، وفي جانب الاستباحة والتحليل ، ثم قررت في حزم وحسم أن هؤلاء خاسرون فقالت : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

٣ — وجاء بعد هذا إبطال حجتهم في كل من « شرك العقيدة » و « شرك العمل » ، وذلك قوله تعالى :

« سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ، قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » .

وهذه الآية تعرض لشبهة قديمة جديدة : قديمة لأن كثيرا من مجادلي الرسل موّهوا بها ، وحديثة لأنها دائما تراود كثيرا من المتمسكين بالأوهام في سبيل إرضاء نزواتهم من التحلل والعصيان .

يقولون : هذا أمر الله ، أو هذا قضاء الله علينا ، ولو شاء الله ما فعلناه ، وإذا كان الله قد قضى بهذا علينا فما ذنبنا ؟ ولم يعاقبنا ؟ . . إلى غير ذلك من اللغو الباطل .

وقد جاء ذكر هذه الشبهة في غير موضع من القرآن كقوله تعالى في سورة الأعراف « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون » وقوله تعالى في سورة النحل « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك قال الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين »

وقوله تعالى فى سورة الزخرف « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم الا يخرصون » .

وهذا الموضوع طويل ، وليس من غرضنا فى هذا أن نستوفى الاتجاهات الفكرية فيه ، ولكننا إنما نعرض له إجمالا لبيان موقف السورة والقرآن الكريم عامة منه ، فنكتفى ببيان ما تعتمد عليه الشبهة ، وما يعتمد عليه الرد القرآنى الواضح الذى لا تعقيد فيه ولا تكلف .

فالشبهة تموّه على العقول وتتلاعب بالألفاظ والمعانى على هذا النحو ، فتقول :

(١) لا يمكن أن يقع فى ملك الله إلا ما يشاؤه الله .

(٢) ونحن مملوكون لله ، فكل ما نفعله واقع بمشيئة الله ، أى أن الله شاءه منا ، ولو كان الله لم يرده ؛ ما وقع منا .

هذه هى عناصر الشبهة ، وهى عناصر ظاهرها حق لا يمكن المنازعة فيه ، فلا يستطيع إنسان أن ينكر القضية الأولى : « لا يقع فى ملكه إلا ما يشاء » بل هى قضية يقررها القرآن نفسه فى كثير من آياته مثل « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » ومنطق التنزيه يقتضيها وإلا كان الله تعالى مغلوباً على أمره - تنزه ربنا وتقدس - كذلك لا يستطيع إنسان أن ينكر القضية الثانية التى تقول : نحن مملوكون لله فاعلون ما نفعل بمشيئته ، لأن هذه الثانية فرع من فروع القضية الأولى ، وجزئية خاصة من جملتها العامة .

ولأن هاتين القضيتين مسلمتان بمعناهما الظاهر ؛ وجدتْ الصعوبة فى كشف الزيف ، وإبطال الشبهة ، ولقى أهل العلم فى ردها كثيراً من عنت أهل الجهل أو المتبعين لما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة .

أما رد القرآن عليها فيتلخص فيما يأتى :

١ — نعم لا يقع فى ملكه إلا ما يشاء ، فالطائع تحت المشيئة ، والعاصى تحت المشيئة ، ولم يعص الله تعالى مغلوباً ، ولم يطع مكرهاً .

٢ — ولكن المشيئة لم تجر بأن تجبر أحداً على طاعة أو معصية .

٣ ـــ وقضاء الله وقدره هو علمه بكل ما هو كائن قبل أن يكون ، وليس العلم صفة تأثير وجبر .

ويتلخص هذا فى أن الله تعالى علم كل ما هو كائن قبل أن يكون ، ثم خلق الإنسان فجعل له عقلا يرشده ، واستطاعة يصح بها تكليفه ، ثم طوى علمه السابق عن خلقه ، وأمرهم ونهاهم ، وأوجب عليهم الحجة من جهة أمرهم ونهيهم ، لا من جهة علمه السابق فيهم ، فهم يتصرفون بين مطيع وعاص ، وكلهم لا يعدو علم الله السابق فيه ، وإلا انقلب العلم جهلا ـ تعالى الله عن ذلك ـ ولكن ليس فى أن يعلم الله الأمور قبل وقوعها إجبار ، لأن العلم ليس من صفات التأثير ، فمن فعل شيئاً فقد فعله باستطاعة منه فى ظل المشيئة الإلهية ، ولم تجر المشيئة بأن تجبر أحداً على طاعة أو معصية ، ولكن تيسر وتمد : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » « والذين اهتدوا زادهم هدى » « قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا » ولو شاء الله لجمعهم على الهدى »[1] .

وسورة « الأنعام » فى ردها على هذه الشبهة تقرر .

أولا : أن هذه الشبهة قديمة ، وأن المكذبين السابقين ظلوا متمسكين بها حتى ذاقوا بأس الله « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » .

ثانياً : أن الزعم بأن الله شاء هذا على معنى أنه جبرهم عليه فهم لا يستطيعون عنه فكاكا ، إنما هو زعم باطل لاسند له من العلم والتفكير الصحيح ، فإن المشيئة الإلهية لها سنة تقيدت بها ، ولا عيب فى أن يقيد القادر مشيئته بمشيئته ، وهذه السنة هى أن لا جبر على طاعة ولا معصية .

فبطلان زعمهم يؤخذ من قول الآية « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم ألا تخرصون » .

وتقرير أن المشيئة لم تجر بالجبر يؤخذ من الآية التالية « قل فلله الحجة البالغة

(١) مناهج التفكير فى الشريعة الإسلامية — للمؤلف — ص ٦ من القسم الأول .

فلو شاء لهداكم أجمعين » أى فلو شاء أن يكرهكم ويفرض هدايتكم بقوته وقدرته ؛ لهداكم ، ولكنه لم يشأ إجباركم على الهداية . كما لم يشأ إجباركم على الضلالة .

ومن هذا الباب « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » أى ولكنا لم نشأ ، لأنا جعلنا التكليف اختباراً ، ولم نجعله إجباراً .

وكذلك مثل « من يشأ الله يضلله ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » فهى مشيئته المدّ والتيسير ، لا الإلجاء والتسخير .

ب — الوصايا العشر

فى ختام الحديث عن التحريم والتحليل ، وبعد سَوْق الحجة عليهم ، وإبطال ماهم عليه ؛ انتهى الاحتجاج إلى التحدى ، فقال الله تعالى : « قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة . وهم بربهم يعدلون » .

وهذه الآية لها جانبان :

أحدهما : أنها ختام بارع قوى للاحتجاج على المبطلين فإنها بعد البيان التفصيلى لبطلان ماهم عليه تحدتهم بأن يأتوا بشهادة تثبت صحة مازعموا من التحريم ، وكان هذا التحدى بأسلوب الواثق من حجته ، المنتصر فى هذه الحرب الجدلية . المطمئن إلى أنهم لا يمكن أن يأتوا على هذا بشهداء ، وليس المراد أنهم سيحضرون شهداء أو أن المطلوب منهم أن يحضروا شهداء وإنما هو طلب تعجيز ، كما يقول القائل وهو واثق من موقفه أمام الذى يجادله : هات شهيداً يشهدلك — وهو يعلم أنه لا شهيد له وقوله تعالى « فإن شهدوا فلا تشهد معهم » إلى آخر الآية ؛ يراد به أن يفهم الرسول أن الأمر إذا وصل إلى هذه المرحلة من العناد والاختلاق ، فشهدوا لأنفسهم ، أو استجلبوا من يشهد لهم باطلا من أنصارهم ؛ فإن الخير فى تركهم والوقوف منهم موقف الإنكار الصامت السلبى ، وقد يكون الإنكار الصامت أشد على نفوس المجادلين من المحاجة ، فإنه إشعار لهم بأنهم لم يعودوا أهل مناقشة ، ولم يعودوا يستحقون أن يُعبأ بهم ، أو أن يُردّ عليهم .

وقد جمعت لهم الآية فى ختامها أوصافهم الثلاثة التى كان حجاج السورة معهم على أساسها ، وهى التكذيب بآيات الله ، وعدم الإيمان بالآخرة ، وأنهم يعدلون بربهم الحقّ شركاء كأنهم معادلون لله .

أما الجانب الثانى لهذه الآية ، فهو أنها تمهيد لما جاء بعدها من الوصايا العشر التى هى مجامع وأسس لما يقوم عليه المجتمع الإسلامى من عقيدة وسلوك .

فكأن السورة بعد أن انتهت إلى إبطال مزاعمهم وعقبت بتحديهم ، تقول لهم : اسمعوا البيان الصحيح الحق فيما حرم الله تعالى وفيما أحل من الأفعال والأقوال ، اسمعوه ممن له وحده الحق فى أن يقوله ، وفى أن يُتلقى عنه ، وهو الله ربكم .

* * *

تأتى بعد ذلك آيات ثلاث متضمنة تلك الوصايا العشر ، وهى قوله تعالى :

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم : أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط . لا نكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »

وليس من غرضنا أن نفسر هذه الآيات تفسيراً تفصيليا نعرض فيه للألفاظ والأسلوب ووجوه البلاغة ، ولكننا نعرضها عرضا عاما يتبين منه أنها تضمنت أهدافا كبرى من الأهداف الأولى للإسلام ، وأن هذه الأهداف هى أسس قوية لبناء مجتمع سليم .

ويرجع كلامنا فى هذا إلى نقطتين :

الأولى : بيان حال المجتمع الجاهلى إجمالا :

الثانية : دراسة موجزة لهذه الوصايا العشر نبين بها قيمتها فى الإصلاح وغاية الإسلام من تقريرها ، ثم نبين السر فى مجيئها ثلاث مجموعات فى ثلاث آيات ، والسر فيما ختمت به كل آية منها .

* * *

(١) بيان حال المجتمع الجاهلى إجمالا :

من المعروف أن مجتمع الجاهلية والشرك كان مجتمعا متناقضا لا يصدر عن مبادىء واحدة يراها المنطق السليم ويرى آثارها فى كل خلق وعمل .

فبينما كان القوم أهل نزعة تدينية ورثوها عن آبائهم وعما قبلهم من شريعة إبراهيم وإسماعيل ، كما يظهر فى اهتمامهم بالحج ومناسكه ، وفى أنهم كانوا يهتمون بمناصب السقاية والسدانة . ويحتفظون لكل بيت بما ورثه فى ذلك . إلى غير هذا مما يصور نزعتهم إلى التدين ؛ فإننا نجدهم من جانب آخر متحللين يرتكبون الموبقات ويأتون الكبائر ، ويقتلون أولادهم من إملاق أو خشية إملاق ، ويئدون بناتهم خوف العار ، ويتجرءون على الدماء الحرام فيسفكونها ، وعلى الأموال الحرام فيأكلونها ، ويرتكبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن .. إلى غير ذلك .

وبينما نراهم أهل كرم ونجدة حتى كان الواحد منهم ربما ذبح ناقته التى لا يملك غيرها ليكرم بها ضيفا نزل عليه لا يعرفه ، وحتى كان أحدهم إذا استصرخ أنجد من استصرخه دون أن يسأله لماذا استصرخه ، وعلى من استصرخه ، ولكنه يخفّ إليه بسيفه فى طرفة عين ، ومع هذا نراهم يستبيحون أن يسلبوا الناس أشياءهم وأن يقتلوا المارة ، ويغنموا متاعهم وبضاعتهم ، وأن يفعلوا هذا أحياناً لا لشىء إلا لكى يظهروا شجاعتهم وبطولتهم ، ويتحدثوا بذلك فى أشعارهم ، وكم لهم فى هذه الناحية من أخبار وأشعار .

وهم قوم يغارون على الحرمات ، ومع ذلك ينتهكونها ، فالمرأة العربية كانت موضع شد وجذب : زوجها وأهلها يريدونها حرة عفيفة ، والفتاك والعشاق من حولها يراودونها بالشعر والغزل والمغامرات .

وكانوا مع غيرتهم ربما سمحوا أن تذهب المرأة منهم إلى رجل ذى منزلة فى المجتمع فتمكنه من نفسها ، لتثمر من هذا التمكين ولداً يشبهه .

ولو ذهبنا نستقصى ألوان التناقض فى المجتمع العربى قبل الإسلام لطال بنا الأمر ، وإن ذلك لمعروف مشهور .

ولذلك كان من منطق الدعوة الإسلامية وقد استعلنت وظهرت بعد السرية والاختفاء ، أن تضع برنامجاً إصلاحياً لهذه الجماعة المنحلة المضطربة المتناقضة فجاءت هذه الوصايا ، كمبادئ عامة ، وعبر فيها بلفظ « التوصية » لأنه لم يكن قد بدأ دور الأحكام التفصيلية بعد ، تلك الأحكام التى تعطى هذه المبادئ عناية تجعل من كل منها قانونا منسقا ذا جزئيات ومواد .

أعطى الإسلام هذه المبادئ العامة لهذا المجتمع الطائش النزق المضطرب ، فكان أشبه بالذى يبنى صرحا فيبدأ بأركانه الكبرى وحيطانه وأعمدته .

وإذن فتلك الوصايا أسس أعلنها الإسلام ، وقرر أن يقيم عليها صرح المجتمع ، فلنقف قليلا أمام هذه الأسس موقف المتأملين :

* * *

(٢) دراسة موجزة للوصايا العشر :

جرت السورة ـ فى تقرير هذه الوصايا ـ على عادتها ، فأمرت الرسول بلفظ « قل » على سبيل التلقين له ، لكى يشعروا من أول الأمر بأن هذا بيان إلهى ليس الرسول فيه إلا ناقلا مبلغا : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » .

وهذه العبارة التى قدمت بها الوصايا فيها إشعار بأن الحقائق الأولى التى قام عليها الجدال فى السورة قد أصبحت واضحة ، لا مفر من قبولها والبناء عليها ، فالله تعالى يأمر رسوله بأن يبلغهم ، وإذن فهناك إله من شأنه أن يرسل الرسل ، وهناك رسل من شأنهم أن يتلقوا عن الله ، وهناك محرمات وردت من المصدر الذى يحق له التحريم وحده لأنه هو الرب « ما حرم ربكم » ثم هناك لازم عقلى لهذا التحريم هو أن من تعداه وانتهكه كان مغضبا للرب الذى قرره ، مستحقا

العقوبته ، وإذن فهناك دار للجزاء ، ولننظر بعد ذلك فى الوصايا :

الوصية الأولى : من هذه الوصايا هى قوله تعالى : « أن لا تشركوا به شيئا »

وهى الأساس الذى يصلح عليه أمر الناس ، فإن المجتمع الذى يقوم على إيثار الله على كل ما سواه هو المجتمع الفاضل المثالى السعيد ، أما المجتمع الذى يشرك بالله أحدا أو يشرك بالله شيئا ، فإنه مجتمع منحل تسيره المادة الصماء التى لا روح فيها ، ولا صلاح ولا قرار معها .

وقد عبرت الآية الكريمة بعبارة جامعة لنوعين من الشرك ، حيث قالت « أن لا تشركوا به شيئاً » . بيان ذلك : أن الشرك بالله واتخاذ غيره إلهاً نوعان : شرك فى العقيدة ، وشرك فى العمل :

فأما شرك العقيدة : فهو أن يعتقد الإنسان أن مع الله إلهاً آخر يستحق العبـــادة والطاعة ، كهؤلاء الذين كانوا يعبدون الشمس والقمر والأشجار والأحجار وغير ذلك من التماثيل التى كانوا يصنعونها بأيديهم ثم يخضعون لها ، ويقفون أمامها خاشعين ، ويتخيلون رضاها وغضبها ، وبركاتها ولعناتها ، فترعد فرائصهم منها خوفا وفرقا .

ولا شك أنه لا يوجد سفه وضلال يقع به الإنسان فى التخبط والعماية كهذه العقيدة ، ولم نجد أحدا فى التاريخ يعتقدها إلا ذوو الأحلام الضعيفة ، والعقول السخيفة ، ولذلك يسخر الله منهم كثيراً ، ويصفهم بالجهل والعمى ، وأن لهم قلوبا لا يعقلون بها ، وآذانا لا يسمعون بها ، وأعينا لا يبصرون بها ، وأنهم كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا .

وهذه العقيدة مُودية بصاحبها فى الدنيا قبل أن تُودى به فى الآخرة ، وحسبنا أن نتصور رجلا فى مجتمع مفكر - ولا سيما فى عصرنا الحاضر - وهو يؤمن فى قرارة نفسه أن هذا الحجر أو ذاك إله يستحق منه العبادة ، ويملك له النفع والضرر ، إنه لا شك يكون فى سائر تصرفاته ذا عقلية ضئيلة ، وشخصية هزيلة ، ومثل هـذا لا يرجى منه أى خير ، بل هو دائماً عرضة لجميع الشرور

وألوان الفساد ، ولذلك يصور الله تعالى حال المشرك به تصويرا رائعاً يمثل معانى الحيرة والاضطراب والخوف والضعف والضلال ، فيقول فى آية أخرى « ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » .

هذا هو شرك العقيدة ، وهو أول انحراف عن سواء السبيل ، وإليه يرجع اضطراب هؤلاء المشركين القدامى ، وما كان فى مجتمعهم من شر وفساد .

ولا أظن أنه بقى على ظهر الأرض من يعتقد أن هناك إلها مع الله يستحق العبادة والخضوع له كما يستحقها الله جل جلاله ، وإذا كان هناك بقايا من مثل هذه الوثنية الأولى ، فأنها ليست بذات شأن ، ومع ذلك فهى صائرة إلى الانقراض السريع .

لكنّ هناك نوعا آخر من الشرك ما يزال باقياً ، وسوف يطول بالإنسانية أمده ،وهو أشد خطورة من الناحية العملية ، وأكبر ضررا على المجتمعات من شرك الأوثان والكواكب والأحجار ، ذلك ما سميناه « بشرك العمل » ، وهو إيثار ما سوى الله على الله وإن اعتقدتَ أن الله واحد ، وأن الأمر بيده ، فإنه لا يكفى أن تؤمن النفسُ إيمانا سلبياً داخلياً بأن الله هو مالك النواصى والأقدام ، ثم لا يظهر لهذا الإيمان أثر فى التصرف والعمل ، بل يظهر فى الأعمال ، والتصرفات عكس ذلك ، كأن الإيمان هو ذلك الزعم القلبى الخفى الذى لا روح له ، ولا حياة به ، ولا يجد ما يصدقه ، إنما الإيمان الحق هو الذى يحول بين صاحبه وبين إيثار شىء على الله « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

وقد وصف القرآن الكريم المائلين للأهواء ، المتبعين للشهوات ، بأوصاف العبودية لغير الله ، واتخاذ غيره إلهاً ، إذ يقول « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه

آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطانُ فكان من الغاوين،ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه » « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » « أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ، فمن يهدى من أضل الله » .

وبهذا تبين أن أول وصية من هذه الوصايا العشر ، هى أول أساس فى بناء المجتمع السليم الذى يقوم على الإدراك الصحيح لأول حقيقة ، وعلى العمل بمقتضى هذا الإدراك فى كل شأن من شئون الحياة .

الوصية الثانية : « وبالوالدين إحساناً » وقد قرن الله تعالى هذه الوصية بالوصية الأولى التى هى توحيده وعدم الإشراك به ، فى هذه الآية وفى غيرها من الآيات ، مثل قوله جل شأنه « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » ، « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » ، « أن اشكر لى ولوالديك » وفى ذلك إيحاء بعظم هذه الوصية ، وتنبيه إلى أن معنًى واحداً يجمعها مع الأولى ،هو أن المنعم يجب أن يُشْكَر : فالوالدان سبب فى حياة الولد ، فيجب أن يشكرهما ويحسن إليهما ، والله سبحانه وتعالى هو الخالق المنعم فيجب أن يُشكر ويُفْرَد بالعبادة والتوجه .

وإن المجتمع لا يمكن أن يصلح إذا بطل هذا المبدأ ، مبدأ الإحسان بالوالدين ، لأنه حينئذ يكون مجتمع نكران ولؤم ، وما أفظع أن ترى أحد الأبناء يتمتع بالجاه والمال وملاذ الحياة ، وأبواه فقيران يصارعان الحياة ويجاهدان العيش ، وهذا الولد قاس غليظ القلب لا يشعر أو لا يريد أن يشعر بأن لهما عليه حقاً ، إن هذا لأسوأ أنواع الجحود والنكران .

وينبغى أن يُعْلَم أن فى الحرص على الإحسان بالوالدين توجيهاً إلى الإحسان بالأخوة والأقارب ، وذلك أن الولد البار بأبويه يجد لزاماً عليه أن يصبر من أجلهما على ما عسى أن يلاقيه من تنكر أخوته أو أقاربه له ، وحسدهم إياه ،

فإن الحسد طبيعة فى الناس ، وهو فى الإخوة والأقارب معروف مشهور ، كما يجد لزاما عليه أن يحسن إلى هؤلاء المتنكرين له وإن أساءوا إليه ، فإن ذلك يرضى والديه ، ويشرح صدريهما ، ولعله أيضا أن يؤدى إلى استلال عوامل البغض : « ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ».

الوصية الثالثة : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » .

ولا شك أن الحياة حق لكل من خلقه الله ، وأن الله تعالى هو الكفيل برزق كل من خلق ، فإذا استباح أحد أن يعتدى على ولده فيقتله ، فإنه لا بد أن يكون معتل الطبع ، أو مختل العقل ، فإن الولد بضعة من الوالد ، والشأن حتى فى الحيوان أن يضحى الوالد من أجل أولاده ويحميهم ويتحمل الصعاب فى سبيلهم .

فالمجتمع الذى يبيح قتل الأولاد خوفا من الفقر أو خوفا من العار ، لا يمكن أن يصلح شأنه ، لأنه حينئذ يكون مجتمعا أفرادُه نفعيون ذوو أثرة ومادية طاغية ، ويكون فى الوقت نفسه مجتمعا أفراده خياليون تطغى عليهم الأوهام ، ويخيفهم المستقبل فيرونه قاتما مظلما إلى درجة أنهم يظنون أن الله تعالى يخلق خلقا ثم لايدبر لهم حقهم من الرزق ، ثم إلى درجة أن يتخيل المتخيل منهم أن هذه الأنثى ستكبرثم تَعْوجّ ،ثم تزل ،فتصيبه بالعار ، وأى عارأكبر من أن يكون مثلُ هذا التفكير رائده وباعثه وموجهه؟ فهل يرتكبُ العارُ المحقق ، توقيا من عار متوهم ؟

وما زال فى الناس من يقتلون أولادهم بإجهاض الحوامل ، ويقولون : إن تكاليف الحياة شاقة ، وإن الأبوين فى هذا الزمان لا يستطيعان القيام بشئون أولادهما ، ولا يقدران على مطالبهم الكثيرة ، لذلك يستبيحون قتل الأولاد عن هذا الطريق ، طريق الإجهاض ، وإنهم لظالمون .

الوصية الرابعة : « ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن »

والفواحش هى كل فعل تنكره العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ، وقد تعلق التحريم فيها بهذا الوصف الذى يشعر بالعلة ـ كما يقول علماء الأصول ـ فكأنه

قال : إن كل فعل من الأفعال تستقبحه العقول فهو فاحشة يجب أن يبتعد عنها ، ولا شك أن هذا مما تصلح عليه المجتمعات ، وتستقر به المثل الفاضلة فيها .

والمجتمع الذى يؤمن بأن هناك « فواحش » يجب أن تجتنب ، و « محاسن » يجب أن تلتمس ؛ هو المجتمع الذى يكون له أهدافٌ ومُثُل ومقاييس ، أما المجتمع الذى يسوّى بين القبيح والحسن ، ويقوم على الفلسفة الإباحية التى لا تفرق بين ما يفعل وما يترك ، فلكل إنسان فيه أن يفعل ما يشاء غير مقيد ، وتلك هى الفوضى وبوادر الانحلال .

الوصية الخامسة : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » .

والقرآن الكريم ينظر إلى وجود الإنسان على أنه بناء بناه الله ، فلا يحق لأحد أن يهدمه ، وبذلك يقرر عصمة الدم الإنسانى إلا بالحق ، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة بغير حق كأنه اعتدى على الإنسانية كلها « أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » .

وفى ذلك تقرير للمبدأ الأول والأهم الذى تستقر عليه حياة البشر وأمنهم ، فإن الإنسان ـ كسائر الحيوان ـ يعتمد على القوة وتنازع البقاء ، فإذا تُرِك إلى طبيعته ، عمد إلى قوته فاتخذها سبيلا إلى قضاء مآربه ، وإزاحة كل من حال بينه وبين هـــذه المآرب من بنى جنسه ، عن طريق سفك دمه ، وفى هذا ما فيه من تفانى هذا النوع وانقراضه ، وفيه كذلك انتشار الخوف بين الناس ، وفساد حياتهم ، واستحالة تعاونهم المثمر بسبب فقدان الثقة ، وفيه إهدار للكرامة الإنسانية ، واستهانة بهذا النوع الذى جعله الله خليفة فى الأرض ، لكن إذا تقرر أن من قتل نفسا بغير حق ؛ كان كمن قتل الناس جميعاً ، لأنه اعتدى على النوع كله باعتدائه على فرد منه ، ولأنه فتح باب الضراوة والبغى وهدْم ما بنى الله ، فإن الناس حينئذ يشعرون بكرامة هذا النوع شعورا يبعثهم على التعاون فى الضرب على يد المعتدى ، واعتبار أنفسهم معتدًى عليهم ، ومن

واجبهم رد هذا العدوان ، فيوجد التكافل على حفظ الحياة ، والتضامن على إقرار الأمن والسكينة .

وقد نسى الناس فى عصرنا الحاضر هذا المبدأ الذى قرره الإسلام باسم الإنسانية كلها : مبدأ التضامن فى الضرب على يد المعتدى ، فأصبحنا نرى من يعتدون على شعوب بأكملها ، ومن يقتلون الناس حصدا بآلات التدمير والإفناء الشامل ، دون رحمة ولا تورع ، ثم لا يجدون من يحاسبهم على ما فعلوا ، ولو تضامن الناس وجعلوا هذا المبدأ شعارهم ؛ لارتدع الظالمون ، وكف المعتدون .

هذه هى الوصايا الخمس التى تضمنتها الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث ، وكلها تشترك فى معنى واحد هو أنها حقائق أو حقوق ثابتة فى نفسها ، متقررة بذاتها ، ولم يكن ثبوتها وتقررها إلا تجاوبا مع الفطرة وحكم الطبيعة : فالله واحد سواء آمن الناس بهذه الحقيقة إيماناً عقيديا وعمليا أم لم يؤمنوا ، وشكرُ النعمة يقتضى الإحسان بالوالدين طبعا ووضعا ، وللنسل حق الحياة والحفظ ، فلا يسوغ للوالدين أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر أو العار ، والفواحش فحش ونكر فى ذاتها فيجب أن تجتنب ويبتعد الناس عنها ، والنفوس معصومة ، وهى صروح بناها الله فليس لأحد أن يهدمها ، وليس للإنسانية أن تتهاون فى شأنها .

ولاتفاقها كلها فى هذا المعنى جاءت فى آية واحدة ، وخُتمت بعبارة تفيد أن هذا مرجعُه إلى حكم العقول « لعلكم تعقلون » وسيأتى مزيد بيان لسر هذا التذييل وغيره مما ذيلت به الآيات الثلاث .

الوصية السادسة : وهى أول الوصايا فى الآية الثانية : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده » .

واليتم عارض يعرض فى كل مجتمع ، ومن شأن المجتمعات الناضجة أن ترعى اليتامى وأن تحافظ على صلاحهم فى أنفسهم وفى أموالهم ، وذلك لأن الإنسانية مشتركة فى العاطفة ومن شأن أفرادها أن يتأثروا بما يصيب الآخرين وبما يصير إليه أبناء الذين ماتوا ، لكن الناس قد ينسون هذه العاطفة أحيانا ، طمعا فى مال

اليتيم ، فأول ما يَدْخل على قلوبهم من التغير فى ذلك ، إنما يأتى من ناحية المال والطمع فيه ، فاحتاجوا إلى أن يُوَصَّوْا بألا يقربوا هذا المال ، وهى عبارة بليغة ذات تأثير قوى ، فإن النهى عن قرب الشىء أبلغ من النهى عن تناوله ، ثم استثنت العبارة ما يكون من القرب الذى هدفُه الإصلاح لهم ، وبذل الوسع فى تحقيق ماهو أحسن لمثلهم ، وهذا يدل على وجوب الاحتراس فى النية وفى العمل جميعا ، فلا يكفى أن تكون نية الأوصياء على اليتامى حسنه ، ولكن عليهم أيضاً أن يبذلوا غاية الوسع ليحققوا لهم فى كل تصرف ما هو الأحسن والأمثل والأعود عليهم بالمصلحة ، ومن الواضح أنه لا يُقصد بذلك مجرد تنمية أموالهم ولو على حساب تربيتهم الخلقية والعلمية ، فإن ذلك لا يكون هو الأحسن ، إنما الأحسن هو أن يعامَل اليتيم كما لو كان ابناً لمن يعامله من الآباء الصالحين ، الواعين ، المخلصين .

ولا شك أن هذا لون من التعاون الاجتماعى لا بد منه فى صلاح الناس ، واستقامة شئونهم .

الوصية السابعة : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها » .

وهذه الوصية هى مبدأ العدل والتعادل ، وكل مجتمع محتاج إليها ، فالناس لا بد لهم من التعامل ، ولا بد لهم من التبادل ، والكيل والوزنُ هما وسيلة ذلك ، فلا بد من أن يكونا منضبطين بالقسط .

ومثل ذلك كل تعامل ولو لم يوزن البدلُ فيه أو يُضبط بالكيل ، فيجب أن يكون الأساس هو إعطاء الحق ، وأخذ الحق ، أما من يريد أن يأخذ لنفسه كل ما استطاع ، ولا يعطى فى مقابل ذلك كل ما عليه أن يعطيه ، فإنه من المطففين الذين يقول الله تعالى فيهم « ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون » .

والمجتمعات الراشدة هى المجتمعات الواعية التى لا تجد فيها أحداً يغبن عن جهل

أو غفلة ، وهى أيضاً المجتمعات الأمينة التى لا تجد فيها من يحاول أن يأخذ أكثر من حقه ، أو يعطى أقل مما يجب عليه .

ولذلك قلت إن الحديث عن الكيل والميزان والقسط فيهما ، يكمن فيه مبدأ القسط فى التعامل عامة ، وفى تبادل المصالح الاجتماعية كلها .

وقد أتبع هـذا المبدأ بقاعدة من قواعد الإسلام الميسرة الرافعة للحرج ، وهى قوله تعالى : « لا نكلف نفساً إلا وسعها » ، وذلك لأن التبادل التجارى أو المصلحى كائناً ما كان ، لا يمكن أن يتحقق على وجه كامل من المساواة والتعادل فلا بد من تقبل يسير من الغبن . فى هذا الجانب أو ذاك ، ومثل هذا يغتفر ويهون أمره ، وعلى هذه القاعدة خُرِّج كثير من المعاملات ، التى أبيحت مع تضمنها معانى لو نُظِر إليها لحرِّمت ، ومن هذا القبيل الرخص المستثناة دفعا للحرج فى التعامل .

الوصية الثامنة : « وإذا قلتم فاعدلوا » والعدل هو أساس الحكم السليم : العدل فى القول ، والعدل فى الحكم ، والعدل فى الشهادة ، والعدل فى كل فعل .

وإنما خَصصت الآية العدل فى القول مع أن العدل مطلوب فى القول والفعل ؛ لأن أكثر ما يكون فيه العدل أقوال كالشهادة ، والحكم ، ثم الأقوال هى التى تراود النفوس فى كل حال ، فالإنسان حين تصادفه قضية من القضايا القولية أو العملية ، يُحدِّث نفسه فى شأنها ، ويراوده معنى العدل وكأنه يطالبه بأن ينطق به ويؤيده ، فيقول فى نفسه سأفعل كذا لأنه العدل ، فإذا لم يكن صادقاً فى هذا القول فقد جافى العدل ، وقال غير العدل .

والغرض ألا يحدث الإنسان نفسه فى أى قول أو عمل إلا بالعدل ، ومن شأن أحاديث النفس أن تكون بواعث على الفعل ، وبوادر له . فإذا صلحت أحاديث النفوس ؛ صلحت الأفعال غالبا .

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الوصية بعبارة أخرى فى آيتين غير هذه الآية ، إحداهما فى سورة النساء وهى قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » والثانية فى سورة المائدة ، وهى قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا كونوا

قوامين لله شهداء بالقسط ، وقد طلب الله تعالى فى هاتين الآيتين إلى المؤمنين أن يكونوا « قوامين بالقسط شهداء لله » وأن يكونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولم يجعل « القوامية » لهذا غير « القوامية » لذاك ، ولا الشهادة بهذا غير الشهادة بذاك ، ليُعْلمنا سر تسمِّيه جل جلاله باسم « العدل » .

الوصية التاسعة : « وبعهد الله أوفوا » والوفاء أصل من أصول الاجتماع التى يتحقق بها الخير والصلاح ، وتستقر عليها أمور الناس ، ويكون بين الأفراد بعضهم وبعض ، وبين الدول والأمم ، والقرآنُ الكريم يأمر بالوفاء بالعقود عامة فيقول الله تعالى « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ويقول جل شأنه « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دَخَلا بينكم أنْ تكون أمة هى أرْبى من أمة . إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » .

وهذه آية جامعة فى شأن الوفاء بالعهد : شددت فى النهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها ، والأيمانُ هى العهود والمواثيق التى يتخذها الناس بعضهم مع بعض ، وحذرت من الله الذى يعلم ما يفعل الناس ، ويطلع على نواياهم ، ويعرف مقاصدهم ، والذى جعلوه كفيلا عليهم أى ضامنا وشاهدا متكفلا بعقوبة كل من تحدثه نفسه بالنقض والنكث ، وصوّرت الناقض لعهده بامرأة تنقض غزلها بعد قوة ما أتمته وأخرجته قويا متينا ، فتعيده أنكاثا ، ولفتت إلى أسباب النقض غالبا ، وهى شعور الأمة الناقضة الناكثة بقوتها فى المادة أو العدد « أن تكون أمة هى أربى من أمة » وهذا أمر نشاهده بأعيننا ، فما تعودت الأمم الضعيفة أن تنقض عهودها مع الأمم القوية ، ولكن الأمم القوية الطاغية بقوتها هى التى تنقض العهود عادة ، بل هى التى تبرمها لتنقضها ، ولا يبعثها على هذا النقض إلا شعورها بقوتها وكثرتها ، فالله تعالى يحذر من هذا الخُلق الدولى ، ويعرف الناس أن القوة والكثرة والنماء فى الأمم إنما هى ابتلاء أى امتحان واختبار ،

كما جرت بذلك سنته تعالى فى الأفراد ، فما من أمة أعطاها الله القوة والكثرة والهيبة ثم جارت فى حكمها ، ونقضت عهودها ، وتنكرت للعدل ، وطمعت فى غيرها ملبية داعى الجشع ؛ إلا أخذها الله بظلمها « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة » « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » .

وآيتنا فى سورة الأنعام تذكر هذه الوصية بلفظ موجز ، ولا تفصل فى شأنها كما فصلت الآية التى ذكرناها ، وسر ذلك كما قلنا من قبل أن سورة الأنعام تضع الأسس والمبادىء ولا تكاد تفصل شيئاً إلا ما تستلزم البيئة العربية يومئذ تفصيله ، ومع ذلك فإن هذه العبارة الموجزة التى جاءت بها الوصية فى هذه السورة « وبعهد الله أوفوا » قد وفت بأصول هذا المبدأ ، حيث ذكرت أن لله عهدا ، وأن عهد الله يجب الوفاء به ، وكلُّ عهد يقوم على أساس من الحق والعدل فهو عهد الله سواء كان بين فرد وفرد ، أو بين أمة وأمة ، وهذا يشعر بأن هناك عهودا غير جديرة بأن تنسب إلى الله ، وهى العقود أو العهود القائمة على الظلم أو الباطل أو الفساد ، فمثل هذه العهود غير جديرة بالاحترام ، ويجب العمل على التخلص منها إذا كانت بين أمة وأمة ، كما يجب أن ينظر فى إصلاحها أو إلغائها إذا كانت بين الأفراد ، وللفقهاء فى العقود تفصيلات ذات صلة بهذا المعنى ، يبينون فيها العقود التى تنعقد والتى لا تنعقد ، والعقود الفاسدة التى تقبل الإصلاح ، وغير ذلك .

وبهذا يتبين أن الإسلام دين الوفاء ، وأنه يجعل للوفاء شأنا عظيما فى المجتمعات الداخلية ، وفى المجتمع الدولى على حد سواء .

وقد انتهت بهذا الوصايا الأربع فى الآية الثانية ، وسنعود إلى حديثها مرة أخرى لنبين السر فى تذييل هذه الآية بقوله تعالى « لعلكم تَذَكَّرون » ومنه يتبين السر أيضاً فى جعل الوصايا الأربع مجموعة واحدة فى الآية الثانية ، كما جعلت الوصايا الخمس الأولى مجموعة واحدة فى الآية الأولى .

الوصية العاشرة : « وأن هذا صراطى مستقيما ، فاتبعوه ولا تتبعوا السبلَ فتفرقَ بكم عن سبيله » .

وهذه الوصية الأخيرة هى الجامعة لكل ما جاءت به دعوة الحق ، فى العقائد والحقائق الأولى ، وفيما يأتى بعد ذلك من التشريع والأحكام .

والله تعالى يعرف عباده بأن الصراط المستقيم واحد ، وهو الصراط المنسوب إليه ـ سواء جعلنا الضمير فى قوله تعالى « وأن هذا صراطى » لله أو للرسول ، فإن صراط الله هو منهجه الذى رسمه وأوحاه إلى الرسول ، وصراط الرسول هو المنهج الذى جاء به من عند الله ـ أما غير ذلك من المناهج ، فهى سُبُل مختلفة متفرِّقة مفرقة ، ولذلك أفرد الصراط المستقيم ، وجمع السبل وعقبها بما يدل على أن التفريق من شأنها فقال « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

* * *

هذه هى الوصايا العشر فى سورة الأنعام ، التى عنيت بتقرير الأهداف الأولى للاسلام ، وقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال « من سره أن ينظر إلى وصية محمد التى عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات : « قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم » إلى قوله « لعلكم تتقون » .

وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث، ثم تلا « قل تعالوا أتل ماحرم ربكم » إلى ثلاث آيات ، ثم قال « فمن وفى بهن فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئا فأدركه الله فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخره إلى الآخرة كان أمرُه إلى الله إن شاء آخذه وإن شاء عفا عنه » .

من أسرار الأسلوب القرآنى :

(٣) إن المجتمعات إنما يأتيها الفساد من نواح ثلاث :

١ — إما من ناحية التصور الفاسد ، والتفكير العقلى الملتوى ، وذلك فى أن ترى الحسن قبيحا ، والقبيح حسنا ، وينشأ أفرادها مطبوعين على هذا الطابع المختل ، كالمريض الذى يحس بالحلو مرا فى مذاقه .

والدواء فى مثل هذا أن تراجع العقول ، وأن تدرس الأخلاق والمقاييس درساً علميا ، وأن يوازن بين خلال السوء وخلال الخير ، إلى غير ذلك من وسائل العلاج التى يراد بها تعديل الذوق ، وتقويم النظر .

٢ — وإما من ناحية الغفلة والنسيان لكثرة الفساد ، وتكرر صوره وألوانه فينسى الخير والصلاح ، وتضطرب المقاييس الصحيحة ، وتند عن الأذهان أحكامها .

وذلك أننا قد نرى مجتمعا يعتقد الحق حقا ، والباطل باطلا ، والصلاح صلاحا والفساد فساداً ، ولكنه مع ذلك ينسى هذا الذى يعتقده ، لاشتغاله عمليا بغيره ، فيبدو كأنه يعتقد الحسن قبيحا ، والقبيح حسنا لشدة بعده عما يعتقد فى الواقع .

٣ — وإما أن يعرف الحق ، ويعرف منهاجه وسبيله ويظل ذاكراً إياه ، ولكنه ينساق مع ذلك فى تيار معاكس لما يعرف ويذكر ، تطلبا للمتاع والحرية ، وتهربا من التكليف والمسئولية .

هذه النواحى الثلاث هى التى يأتى من قبلها الفساد للمجتمعات ، ومهما دققت النظر فلن تجد سواها .

ومن هنا كان من دلائل الإعجاز والعظمة القرآنية أن سورة الأنعام قد قسمت هذه الوصايا العشر أقساما ثلاثة فى آيات ثلاث .

القسم الأول : ما يكون الخروج عنه تنكراً للعقول ، والتواء فى التفكير ، فيحتاج إلى أن يناشَد فيه الناسُ من قِبَل عقولهم ، فيقال لهم فكروا وادرسوا بعقولكم لتعلموا ما هو الحق ، وما هو الخير ، وما هو الصراط السوى ، وتلك هى الوصايا الخمس التى جاءت فى الآية الأولى ، وختمت بقوله تعالى : « لعلكم تعقلون » .

فالإشراك بالله لا يمكن أن يتلاقى مع التفكير العقلى السليم ، والإنسان المفكر يقول لنفسه : أنا مخلوق موجود بعد عدم ، وكذلك أفراد كثيرة غيرى لا حصر لها ، وأشياء كثيرة مما أشاهد ومما لا أشاهد ، ومما أعرف ، ومما لا أعرف ـ

ولا يمكن أن يكون هذا كله قد وجد من طريق المصادفة ، وإذن فلا بد من خالق ، ثم هذا الخالق الوهاب المنعم يقضى العقل بأن يفرد ولا يشرك به ، وإلا لكان من العقل أن تترك المنعم وتشكر غيره ، أو أن تنقص شكر المنعم لتمنح بعض هذا الشكر لمن لم ينعم ، وإذن فمنطق العقل يقتضى الاعتراف بالله إلها واحداً ، كما هو رب واحد .

والإحسان إلى الوالدين أمر تقتضيه العقول كذلك فإن الوالدين هما سبب وجود الولد ، وهما أول من أحسن إليه بعد الله ، فالعقل يقتضى شكرهما بالإحسان إليهما ، ويستقبح نكرانهما بالإساءة إليهما .

ونحب أن ننبه هنا إلى شئ أشرنا إليه إشارة خفية من قبل،فنقول: إن العرب لم يكونوا يهينون آباءهم ، ولم يكن من أخلاقهم التنكر لهم ، وهذه إحدى خلالهم الاجتماعية الكريمة ، بل كانوا ربما بالغوا فى الاعتزاز بالآباء ، وفى اتباع الآباء ، فهذه الوصايا لا تذكر الإحسان بالوالدين لأنهم كانوا يسيئون إليهم ، ولكن لترشد إلى أنه أصل عقلى يترتب على حكم العقول بأن شكر المنعم واجب ، وهم بهذا معترفون ، فما بالهم إذن ينكرون المنعم الأعظم ، وهو الله ، ثم إن الوصية لم تجئ بأسلوب النهى . كما جاء ما قبلها وما بعدها فى الآية ـ فلم يقل : ولا تتنكروا لآبائكم وأمهاتكم ، لأنها لا تريد عدم التنكر فحسب ، ولكن تريدالإحسان المؤكد ، والعرب وإن كانوا لا يتنكرون للوالدين ، لم يكونوا يحسنون إليهم هذا الإحسان الذى تأمر به الوصية ، وتجعله هدفا من أهداف الإسلام فى تربية المجتمع ؟

فهذا هو المعنى الذى ترمى إليه هذه الوصية ، وكأنها تقول مرة : إن الوالدين مصدر نعمة لولدهما ، ومصدر النعمة يجب أن يشكر ، والله أعظم نعمة من الوالدين ، فشكره أوجب .

وتقول مرة أخرى : إن مجرد الاعتراف بالانتساب إلى الوالدين ، والاعتزاز بهذه الانتساب لا يكفى ، بل لا بد أن يكون هناك إحسان إيجابى عملى ، ولعل فى هذا

أيضا إيحاء بأن مجرد الاعتراف بإله خالق ذى نعم لا يكفى ، بل لا بد أن يُضم إلى ذلك كمال وإحسان فى الاعتراف ، وذلك لا يكون إلا بالبراءة من كل شريك لهذا الخالق المنعم .

فهى إذن وصية تفقهها العقول ، وتُناشد فيها العقولُ كالوصية الأولى .

وقل مثل ذلك فى قبح قتل الأولاد خوف الفقر المتوقع ، أو من الفقر الواقع فعلا ، فإن هذا مناف لمنطق العقل ، إذ الوالد إنما هو حماية ورعاية للولد الذى هو جزء منه ، عليه أن يضحى فى سبيله ، فمن أقبح ما تتصوره العقول أن يأتى الضياع من المصدر التى ينتظر منه الحفظ والصون .

وقل مثل ذلك فى قرب الفواحش ، فالعقول تأباه وتنكره ، وقد أعطيت هذه الأفعال عنوان الفواحش فأكسبها ذلك معنى تعليليا عقلياً ، كأنه قال : هى فواحش فاجتنبوها ، فإن العقل يقضى بأن تجتنب الفواحش ماظهر منها وما بطن .

وكذلك قتل النفس التى حرم الله — أى عصم وحفظ — إلا بالحق ، وذلك لأن العقل لا يرى لأحد حقاً فى أن يعتدى على نفس غيره بدون موجب من دفاع أو قصاص ، ولو جاز لعقل أن يستبيح ذلك لكان مجيزا ذلك فى شأن نفسه ، ولا تجد عاقلا أبدا يجيز أن يعتدى أحد على حياته بغير الحق .

هذه هى الوصايا الخمس الأولى التى ختمت الآية فيها بمناشدة العقول فقالت : « لعلكم تعقلون » ، ومن هنا تظهر الحكمة واضحة فى اختيار مناشدة العقول هنا .

القسم الثانى : مالا يكون الخروج عنه إلا نسيانا فهو فى نفسه مقرر معترف به ، ولكنه يُنسى فى بعض الأحيان ، وفى بعض المجتمعات ، لأن غيره — أو ضده — غمره ، وغطى عليه ، والمناشدةُ فيه إنما تكون تذكيراً وإعادة إلى ما هو معروف معترف به ، كما أقول لصاحبي وأنا أحاول رده عن الإسراف فى الإساءة إلىّ : اذكر ما كان بيننا من المعاشرة والمصاحبة .

وهذا القسم هو الوصايا الأربع التى جاءت بها الآية الثانية من هذه الآيات .

إنهم لم يكونوا يستحسنون أكل مال اليتيم ظلما ، ولكنهم كانوا مع ذلك

يأكلونه مندفعين بالطمع والجشع ومبادرة اليتامى قبل أن يكبروا ، فهى عوامل طارئة ، والمستقر فى نفوسهم أصلا هو معنى الشهامة والإحسان إلى الضعفاء واليتامى ، فلذلك يكون علاجهم بأن يذكروا .

وقل مثل ذلك فى الوفاء بالكيل والميزان ، فهو حسن لا ينكرون حسنه ، بدليل أن لهم كيلا وميزانا . لكنهم قد ينسيهم الطمع والجشع ، فعلاجهم أن يذكروا .

والعدل والوفاء بعهد الله كذلك ، فإن القوم مع فجورهم كان بهم ميل ونزعة إلى التدين كما قلنا ، ومن شأن المتدين إذا ابتعد ـ أن يُذَكّر ويهدى إلى ما ابتعد عنه أو نسيه .

فهذا هو السر فى ختم الآية الثانية التى تشتمل على هذا النوع من الوصايا ، بما يدل على قصد التذكير حيث تقول « لعلكم تذكرون » .

أما القسم الثالث : فهو وصية واحدة هى جماع كل خير ، وأساس الوقاية من كل شر ، تلك هى أن ينظروا إلى صراط الله المستقيم فيجعلوه أمام أعينهم ويتبعوه دون غيره من السبل التى من شأنها أن تفرق وتلوى عن سبيل الحق والخير .

واتباع هذه السبيل يقتضى أن يكون هناك رقيب مع الإنسان لا يغيب . وذلك هو التقوى التى هى أن يحاسب المرء نفسه فى كل وقت على مافعل وما ترك . وألا يفعل شيئا إلا وهو مطمئن إلى أنه حق ، وإلى أنه ليس خروجا عن سبيل الله ، فالتقوى هى النور الكشاف ، وهى التى تعلم المرء أن يكون حذراً ، متبصراً ، واعياً ، لا يرتطم فى عصيان ، ولا يتقاعس عن إحسان . سأل عمر ابن الخطاب كعب الأحبار عن التقوى فقال : هل أخذت طريقاً ذا شوك ؟ فقال : نعم ، قال : فما عملت فيه ؟ قال : تَحذرتُ وتشمرت ، فقال كعب : ذلك التقوى !

وهذا هو السر فى تذييل هذه الآية بقوله تعالى « لعلكم تتقون » .

وينبغى أن نعلم أن هذه الوصية الأخيرة هى مساك الوحدة والألفة فى الأمة ، وهى الأساس الذى يقوم عليه الائتلاف والاتحاد ، فإن الأمة لا تصلح إلا إذا كانت أهدافها متحدة ، وكان أبناؤها حول هذه الأهداف ملتفين ، فالشريعة هى صراط الله المستقيم ، وهى قانون الأمة الموحد الذى تأتلف عليه القلوب ، وتتضافر على العمل به الجهود ، أما غيرها فهو فى الغالب يصدر عن أهواء ، وعن متحكمين غير محايدين ولا متخلصين من أغراضهم ، فمن شأنه أن يفرق ويضعف ويضل . وهذه سنة تأذن الله بها منذ أول يوم هبط فيه آدم وحواء إلى هذه الأرض : « قال اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو . فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » .

* * *

وقد جاءت سورة الأنعام بعد هذه الوصايا ، بآية حاسمة فى النهى عن التفرق ، وجه فيها الخطاب إلى الرسول بأسلوب فيه بيان لواقع أمره ودعوته ، وفيه نصح ثمين لأمته ، وذلك حيث يقول جل شأنه : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » .

وبذلك كمل البيان القرآنى فى هذا الأمر ، متخذا أساليب ثلاثة : أسلوب الإشارة الواضحة « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه » ، وأسلوب التحذير مع بيان العاقبة « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » وأسلوب التبرئة للرسول من المتفرقين ، والإيحاء بالحذر منهم : « لست منهم فى شىء » .

– ٧ –

آيات الختام : الحنيفية هى صراط الله المستقيم الذى هدى إليه محمد وإبراهيم وجميع الأنبياء والمرسلين – أساس هذا الصراط المستقيم هو شعور المؤمن بأنه لله وإلى الله – الإيمان بهذه الحقيقة قوة للمؤمن وتوجيه إلى المثالية فى كل شىء – المؤمن لا يخاف الموت – الله رب كل شىء فكيف يبغى المؤمن رباً غيره – كل نفس بما كسبت رهينة – لا تزر وازرة وزر أخرى – لا بد من الرجوع إلى الله ، ومن الفصل بين المختلفين – الناس خلائف جعلهم الله فى الأرض ابتلاء لهم – سرعة العقاب وسعة الغفران .

ختمت هذه السورة الجامعة بخمس آيات تضمنت عدة مبادىء هى كالنتائج والثمرات لما جاءت به ، ومن تأمل هذه الآيات الخمس تجلى له أنها ختام بارع قوى يناسب هذه السورة التى هى سورة البلاغ والإعلان ، والمبادىء العليا لدعوة الإيمان :

هذه الآيات هى قوله تعالى :

« قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ، دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين — قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين — قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ، ولا تكسب كل نفس إلاعليها ، ولاتزر وازرة وزرأخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون — وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » .

وكلامنا عن هذه الآيات يرجع إلى ما يأتى :

١ — كانت جزيرة العرب وما جاورها حين أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم موطنا لليهود والنصارى والمشركين ، وكان لإبراهيم عليه السلام فى نفوس

هؤلاء جميعا ، منزلة عظمى ، وذكرى مقدسة ، حتى كانوا جميعاً يتنازعونه ، وكلٌّ يحاول أن ينتسب إليه ، لذلك كان من المفيد أن تقرر الحقائق المتصلة بهذه الشخصية المجمع عليها .

فكان من منهاج السورة أن قصت قصة إبراهيم التى قدمنا الحديث عنها ، وهو يسلك بقومه سبيل التدرج لكى يدركوا إدراكا عمليا أن الشرك باطل ، وأنه ليس للعالم إلا إله واحد .

وكان من منهجها أن قصت عليهم محاجته لقومه ، وأن هذه المحاجة كانت قوية إلى درجة أن الله تعالى وصفها بأنها حجته آتاها إبراهيم على قومه ، ورفعه بها درجات .

وكان من منهجها أن قررت أن جميع الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى هم من ذرية إبراهيم وعلى هُدَى إبراهيم ، وأن محمداً مأمور باتباع هذا الهدى نفسه .

وبذلك كله لفتت أنظار العرب من جانب ، وأنظار اليهود والنصارى من جانب آخر ، إلى إبراهيم فى حقيقة دينه ، وفى ذريته من الأنبياء والمرسلين .

ثم جاء الأمر الأخير فى السورة أمراً تلقينياً أو إبلاغيا على سنتها فى إبلاغ الحقائق وإعلانها مصدَّرة بلفظ « قل » : « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

فالسورة تقول للطوائف الثلاث — وحديثها مسوق للمشركين ، ولكن يسمعه مواطنوهم وجيرانهم من اليهود والنصارى — تقول لهم :

هذا هو الإسلام ، يقرر الحقيقة التى جاء بها أبو الأنبياء إبراهيم ، فهو صراط الله المستقيم ، الذى يقوم على التوحيد ونبذ الشرك والأوثان ، فليس الذى جاء به بدعا ، وليس غريبا عن الرسالات الإلهية .

٢ — وجاءت الآية التالية لهذه الحقيقة مبينة لهذا الصراط المستقيم الذى هو ملة إبراهيم ، والذى هدى الله إليه نبيه محمدا ، فذكرت أن الصراط المستقيم راجع

فى أساسه وجميع تفاصيله إلى مبدأ واحد هو أن يؤمن الإنسان إيمانا مؤكدا بأن جميع توجهاته فى صلاته ونسكه ومحياه ومماته إنما هى لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمر الرسول فكان أول المؤمنين بهذه الحقيقة، المذعنين لها - إما على معنى الأسبقية الزمنية بالنسبة لقومه، وإما على معنى الأولوية لأنه آخر الرسل، وشريعته مستقرة خالدة فهو أولى من يذعن لها مطمئنا إلى ما يعلمه من ماضيها وحاضرها وخلودها على الدهر - .

والوقع أن إيمان المرء بهذه الحقيقة - وهى أنه كله لله، وأن جميع توجهاته ومقاصده لله، وأن ما يعمله فى الحياة للحياة وللممات فهو لله - إن إيمان المرء بهذا من شأنه أن يجعله أقرب إلى المثالية، واحترام الفضائل، والاتجاه إلى الحق والخير والصلاح، ويمنحه القوة والثبات .

أما الذين يعيشون فاقدى هذا الإيمان فإنهم يكونون مضطربين فى أنفسهم وفى أعمالهم وفى مقاصدهم .

وقد عرف علماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء السياسة، هذه الحقيقة، وعرفوا جدوى الإيمان فى إصلاح شأن الإفراد والجماعات والأمم، ففاضت دراساتهم بذلك، ولم يقتصر أمر هذه الدراسات المؤمنة بجدوى الإيمان وقوته التوجيهية، على علماء المسلمين، بل صار أهل الغرب من علماء أخلاقيين وفلاسفة واجتماعيين، دعاة للإيمان .

ومن أهم ثمرات الإيمان أن كل حى يخاف الموت ويفزع إذا قرب منه، إلا المؤمن الحق الذى يعمل بمقتضى إيمانه، فإنه لا يخافه ولا يفزع إذا قرب منه، لأنه يعلم أن مماته لله رب العالمين، كما أن حياته لله رب العالمين، أى أنه صائر إلى دار أخرى، وراجع إلى ربه الذى آمن به، وتوجه إليه، وعمل بأمره، فهو مطمئن: «يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى» .

٣ — ثم تأتى «قل» الثالثة فى هذه الآيات، والأخيرة فى السورة، فتأمر

الرسول بأن يقطع على المشركين الأمل فى أن يتحول عن عقيدته الكبرى ، وعقيدة توحيد الله ربه ورب كل شىء ، ثم تقرر المبادىء الآتية :

١ — لا تكسب كل نفس وزراً إلا كان عليها ما كسبته ، وإذن فالإنسان مسئول محاسب ، وليس خَلقاً مهمَلا يفعل ما يشاء ، ويَترك ما يشاء دون مسئولية .

٢ — ولا يحمل أى إنسان وزر غيره ، وهذا هو العدل الإلهى الذى لا يتصور غيره . أما الذين يحملون أوزارهم وأوزارا مع أوزارهم فإنما هم أمثال المضلين المتبوعين الذين يكونون سببا فى إفساد الناس من شعوب أو أفراد ، وحينئذ يكون لهم أوزار هم فعلوها : بعضها فى حق أنفسهم ، وبعضها فى حق الآخرين ، وفى هؤلاء يقول الله عز وجل « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ؛ ألا ساء ما يزرون » .

٣ — لا بد من الرجوع إلى الله ، فالبعث حقيقة سواء آمنتم بها أم لم تؤمنوا ، ثم يكون الجزاء على الأعمال ، وهذا هو معنى الإنباء بها فى قوله تعالى « قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم » وفيما تقوله السورة : « فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » تريد أن الحقائق يومئذ تتجلى لهم فيعلمون ما كانوا ينكرون ، ويبدو الحق الذى كان يقع فيه الخلاف بين من يؤمنون ومن لا يؤمنون ،

٤ — وتأتى آخر الآيات الخمس ، وآخر السورة فتقرر أن الله تعالى هو الذى استخلف الناس فى الأرض ، فجعل هذا الصنف من الخلق خلائف يخلف بعضهم بعضا فيها ، يذهب جيل ويأتى جيل ، ويولد قرن من الناس ويفنى قرن ، فهى دار حياة موقوته ، وقد رفع الله الأحياء فيها بعضهم فوق بعض درجات ، فى الخلق والتكوين ، وفى المواهب والطبائع ، وفى العلم ، وفى المال ، وفى الجاه ، وفى كل شأن من شئون الأحياء ، وهذا يدل على أن هناك مدبرا ومصرفا ، وإلا فما الذى يجعل هذا قويا وذاك ضعيفا ، وهذا ذكيا والآخر غبيا ، وهذا وسيما وغيره دميما ، إلى غير ذلك « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » .

والغاية من هذا كله الابتلاء والاختبار « ليبلوكم فيما آتاكم » .

والحقيقة الأخيرة فى هذه السورة هى ما وصف الله به نفسه من أنه « سريع العقاب » يعاجل بعقوبته الظالمين ، « وإنه لغفور رحيم » يعفو عمن رجع إليه ، ويرحم عباده .

وسرعة عقابه تعالى التى جاءت فى هذه الآية ، أو سرعة حسابه كما جاء فى غير هذا الموضع ، من مظاهرها أن لكل فعل يفعله الإنسان نتائجه الطبيعية التى تترتب عليه ، فمن أسرف فى شرب الخمر مثلا ، عادت على جسمه وصحته بقدر ما أسرف ، وكان ذلك عقوبة مادية عاجلة له ، ومن استباح أكل أموال الناس بالباطل عاد عاد ذلك عليه ببغض الناس إياه ، وكان ذلك عقوبة سريعة له فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

وهكذا ترتبط الأعمال خيراً أو شراً بعواقبها من خير وشر ، فيكون ذلك من سرعة حساب الله تعالى ، والله مع ذلك غفور رحيم ، يحلم كثيراً ، ويؤجل كثيراً ، ويعفو كثيراً رحمة بعباده ، وعلما بما خلقهم عليه من ضعف ، وتمكينا لهم من أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويتوبوا إلى ربهم « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة » . وسبحان ربنا الغفور الرحيم .

* * *

أما بعد :

فهذه هى سورة الأنعام وأهدافها الأولى التى رسمتها باسم الإسلام ، وما أدعى إننى استقصيت كل الاستقصاء ، ولكنها قبسات من نور القرآن أرجو أن ينفع الله بها ، وألا يحرمنى كرمه وبره « إنه هو البر الرحيم » .

والحمدلله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومتبعيه بإحسان إلى يوم الدين .